

جدل الشعر والتاريخ:
في قصيدة "أربَعُ البلى.." لأبي نواس
دراسة في النقد التاريخي

د. إلهام عبد الوهاب المفتي
كلية التربية الأساسية، دولة الكويت

Dialectics of Poetry and History: A Study in Abu Nuwas's poem: "A Rab'a il- Billa", a Historical Critical Study.

Abstract

This research examines the dialectical relationship between poetry and the historical circumstances that surrounded it, which motivated the poet to create it. The research argues that such examination can provide important indicators that help rationalize critical judgements.

To prove the validity of this hypothesis, the research carefully examines one of al-Hasan bin Hani's (Abu Nuwas) poems, which he said in praising al- Fadl bin Yahya al- Barmaki during mistserious and vague historical events, full of apparent and hidden stormy temptations. This poem was subjected to evaluation by some prominent classical Arab critics; such as: ibn Tabatiba al- Alawi, abu Hilal al- Askari and ibn Rashiq al- Qayrawani. This study attempts to reconsider their critical judgements in accordance with the historical events that attached to it.

Keywords: Dialectic relationship, Barmakid's tragedy, Abu Nuwas, Abbasid poetry, text and context.

جدل الشعر والتاريخ:
في قصيدة "أربَع البلى.." لأبي نواس
دراسة في النقد التاريخي

ملخص البحث

يعكف هذا البحث على فحص العلاقة الجدلية بين العمل الشعري والظرف التاريخي الذي أحاط به وشكّل الحافظ الباعث على إبداعه، ومدى تأثير ذلك على الأحكام التي يصدرها النقاد على النص. ويفترض البحث أن هذه العلاقة يمكن أن تمدنا بمؤشرات مهمة تعين على ترشيده الحكم النقدي، وأن استبعاد السياق التاريخي والمجتمعي من التقييم يمكن أن يفضي إلى الوقوع في اللبس وسوء الفهم.

وللتدليل على صواب هذه الفرضية توفر البحث على فحص دقيق لإحدى قصائد الحسن بن هانئ (أبي نواس)؛ التي قالها مادحاً الفضل بن يحيى البرمكي في ظرف تاريخي غامض وحافل بالعواصف والفتن الظاهرة والخفية، وقد كانت القصيدة موضوعاً للتقويم من عدد من أعلام نقاد الشعر القديم، مثل: ابن طباطبا العلوي، وأبي هلال العسكري، وابن رشيق القيرواني. وتحاول هذه الدراسة إعادة النظر في أحكامهم النقدية على القصيدة في ضوء سياقها التاريخي.

الكلمات المفتاحية: العلاقة الجدلية، نكبة البرامكة، أبو نواس، الشعر العباسي، المقام والمقال

جدل الشعر والتاريخ: في قصيدة "أربع البلى.. " لأبي نواس دراسة في النقد التاريخي

تمهيد:

يحاول البحث البرهنة على أهمية فحص العلاقة بين العمل الشعري والظرف التاريخي الذي يحيط به، ويشكل البواعث الحافزة للشاعر على إنتاجه، ويقدم المؤشرات المعينة على تأويله، كما ينتصر البحث لوجهة النظر القائلة بأن إهمال فحص هذه العلاقة يؤدي في الغالب إلى التباس الفهم وسوء التأويل.

ولفحص هذه الفرضية وقع الاختيار على قصيدة للشاعر أبي نواس الحسن بن هانئ الحكمي، قالها مادحاً الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي، في ظرف تاريخي شديد التوتر والغموض، حافل بالعواصف السياسية الظاهرة والخفية.

ولقد كانت هذه القصيدة مناط اهتمام لدى كثير من أعلام نقاد الشعر المتقدمين، وكان لهم أحكامهم النقدية التي سيجعلها البحث موضع رجوع النظر والتقويم.

يفترض البحث أن فحص هذه القصيدة المختارة لأبي نواس في ضوء أحداث الفتنة البرمكية والأدوار التي اضطلع بها صانعوها يمكن أن يؤدي إلى نتيجتين مهمتين: إثبات ضرورة اعتبار الظرف التاريخي عند التحليل، وإقرار رؤية نقدية مخالفة لما ذهب إليه نقاد الشعر المتقدمون في شأن الحكم على القصيدة.

لفحص الفرضية السابقة والتوصل إلى تحقيق مدى حظها من الصواب انتظم هذا البحث بعد التمهيد في أربعة من المحاور الأساسية؛ وهي:

- ١ / ٠ الشاعر والقصيدة
- ٢ / ٠ القصيدة في السياق النقدي
- ٣ / ٠ القصيدة في السياق التاريخي
- ٤ / ٠ تحقيق فرضية البحث: عود على بدء
- ٥ / ٠ خاتمة وتحصيل

وينشعب كل محور من المحاور الأساسية السابقة إلى عدد من المحاور الفرعية التي تتكامل فيما بينها داخل كل محور، وتعتضد بالمحاور الأخرى لتصل بنا في النهاية إلى بلورة الحجة التي ينهض هذا البحث لإثباتها.

ومن هذا التمهيد ينطلق البحث لمعالجة المحاور الأربعة السابق بيانها.

١ / الشاعر والقصيدة

١ / ١ الشاعر

هو أبو نواس الحسن بن هانئ بن عبد الأول الحَكَمي بالولاء. وربما كان من التكثر وفضول الكلام بسط القول في سيرته، فليس يخلو كتاب من كتب التراجم التي صنفها المتقدمون والمتأخرون من تصيل مسيرته، وحسبنا في هذا البحث أن نقف عند معالم رئيسة هادية؛ فنذكر أن

في تاريخ مولده ووفاته خلافاً لا ثمرة له في ما نحن بصده من حديث، والراجح فيه أن مولده كان في الأهواز عام ستة وأربعين ومئة للهجرة، وأن الوفاة كانت ببغداد عام ثمانية وتسعين ومئة، وكانت نشأته بالبصرة. وقد تضلّع الرجل في علوم الدين؛ فقرأ القرآن الكريم، وطلب الحديث، وجالس أئمة اللغة وأعلامها، وشهد له بالعلم والفصاحة وتقدم المكانة بين الشعراء وأهل العلم وشيوخه، فرُوِيَ عن أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٥٩-٢٥٥هـ) قوله: "ما رأيت أحداً كان أعلم باللغة من أبي نواس، ولا أفصح لهجة مع حلاوة ومجانبة للاستكراه" (١). وقال الجاحظ أيضاً: "سمعت النظم يقول، وقد أنشد شعراً لأبي نواس في الجبر: هذا الذي جُمع له الكلام فاختر أحسنه" (٢). ونجد في المصادر كثيراً من مثل هذه الأقوال الدالة على مكانة الرجل بما يعني عن استنساخه في هذا الحيز المحدود (٣).

٢ / ١ القصيدة

القصيدة المعنية بالدراسة هي تلك التي امتدح أبو نواس بها الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي، وقيل في خبرها أن الفضل بن يحيى بنى داراً فاستفرغ جهده في تشييدها وتحسينها، فصنع الشاعر في ذلك الحين أو قريباً منه هذه القصيدة التي مدحه بها. وقد تضمنتها كل نشرات الديوان، وفي الصدارة منها ثلاث:

(١) نشرة أبي بكر محمد بن يحيى الصولي (٤).

(٢) نشرة إيفالد فاغنر و غريغور شولر (٥).

(٣) نشرة أحمد عبد المجيد الغزالي (٦).

وئمة فروق بين نسخ القصيدة في النشرات الثلاث؛ منها اختلاف ترتيب بعض الأبيات، ومنها إبدال بعض الألفاظ بأخرى. وليس لهذه الفروق على الإجمال كبير أثر على جوهر القضية التي يتصدى لها هذا البحث. والنسخة المختارة هنا هي تلك التي وصلت برواية الصولي؛ إذ هي - بوجه عام - أوفق وأوفى، بما تضمنته من شرح ميسر لغريب ألفاظها. وثبت هنا نص القصيدة المعتمد كما ورد في الرواية المختارة.

نص القصيدة

قال [أبو نواس] يمدح الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي:

١- أربَع البلى إنَّ الخُشوعَ لبّادي
عَلَيْكَ، وَإِنِّي لَم أُخْنِكْ وَدَادِي
٢- فَمَعْدَرَةٌ مَنِّي إِلَيْكَ بِأَنْ تُرَى
رَهِينَةٌ أَرْوَاحٍ وَصَوْبِ عَوَادِي
٣- فَلَا أَدْرَأُ الضَّرَاءَ عَنْكَ بِحِيلَةٍ
فَمَا أَنَا مِنْهَا قَائِلٌ لِسُعَادِ
٤- فَإِنْ كُنْتَ مَهْجُورَ الْفِنَاءِ فِيمَا رَمْتُ
يَدُ الدَّهْرِ عَنْ قَوْسِ المُنُونِ فَوَادِي

سُمِّيَتِ المنون والمنية: لأنها تذهب بالمنة: أي القوة.

٥- وَإِنْ كُنْتَ قَدْ بُدِلْتَ بِوَسْئِ بِنِعْمَةٍ
لَمَّا بُدِلْتُ عَيْنِي قَدَى بِرُقَادِ
٦- سَأَرْحَلُ مِنْ قُودِ المَهَارِي شِمْلَةً
مُسَخَّرَةً لَا تُسْتَحْتُ بِحَادِي

شملة: سريعة، خفيفة. والمهاري: منسوبة إلى مهرة. والقود: الطوال الأعناق.

٧- مَعَ الرِّيحِ إِنْ هَبَّتْ فَإِنَّ هِيَ أَعْصَفَتْ
نَهْوُزُ بِرَأْسِ كَالعَلَاةِ وَهَادِي

العلاة: سندان الحداد. والهادي: العنق، مع الريح، يقول: هي كالريح في سرعتها، فإذا أعصفت الريح حرّكت رأسها، وجهدت، فلحقتها.

- ٨- فَكَمْ حَطَمْتُ مِنْ جَنْدِلٍ بِمَفَازَةٍ
وَحَاصَّتْ كَتَيَّارِ الْفِرَاتِ بِوَادِي
٩- وَمَا ذَلِكَ فِي جَنْبِ الْأَمِيرِ وَرُورِهِ
لِيَعْدِلَ عَنْ عَنَسِي مَدَبَّ قِرَادِ
١٠- فَتَى لَا تَلُوكُ الْخَمْرُ شَحْمَةَ مَالِهِ
وَلَكِنْ أَيْادِ عُوْدٍ وَبِوَادِ

يقول: لا ينفق ماله على الخمر، بل في المكارم.

- ١١- رَأَيْتُ لِفَضْلِ فِي السَّمَاحَةِ هِمَّةً
أَطَالَتْ بِرَغَمِ غَيْظِ كُلِّ جَوَادِ
١٢- تَرَى النَّاسَ أَفْوَاجاً إِلَى بَابِ دَارِهِ
كَأَنَّهُمْ رِجَالاً دَبَّاءَ وَجِرَادِ

الذّبا: صغار الجراد. والرجل: القطعة منه.

- ١٣- فَيَوْمًا لِالْحَاقِ الْفَقِيرِ بِذِي الْعَنَى
وَيَوْمًا رِقَابَ بُورِكَتٍ بِحَصَادِ
١٤- فَأَعْنَتُ أَيْادِيهِ مَعْدًا وَأَشْرَقْتُ
عَلَى جَمِيرٍ فِي دَارِهَا وَمُرَادِ
١٥- وَكُنَّا إِذَا مَا الْخَائِنُ الْجَدَّ عَرَّهُ
سَنَى بَرَقَ غَادٍ أَوْ ضَجَّيْجِ رِعَادِ
١٦- تَرَدَّى لَهُ الْفَضْلُ بَنُ يُحْيَى بْنِ خَالِدِ
بِمَاضِي الطَّبِيِّ يَزْهَاهُ طُولَ نِجَادِ

يزهاه: يرفعه. والطّبة: الحد. والنجاد: محمل السيف؛ أي هو طويل، فنجاهه طويل.

- ١٧- أَمَامَ حَمِينِ أَرْجَوَانَ كَأَنَّهُ
قَمِيصٌ مَحُوكٌ مِنْ قَنَاءٍ وَجِيَادِ

الخميس: الجيش. وأرجوان: أسود من كثرة السلاح، ويروى: أرونان^(٧).

- ١٨- فَمَا هُوَ إِلَّا الدَّهْرُ يَأْتِي بِصَرْفِهِ
عَلَى كُلِّ مَنْ يَشْتَقِي بِهِ وَيُعَادِي
١٩- سَلَامٌ عَلَى الدُّنْيَا إِذَا مَا فُقِدْتُمْ
بَنِي بَرْمَكٍ مِنْ رَانِحِينَ وَغَادِ
٢٠- بِنْدُوبِيرٍ يَحْيَى أَشْرَقْتُ سُبُلُ الْهُدَى
وَأَمَنْ رَبِّي خَوْفَ كُلِّ بِلَادِ
٢١- فَمَا ضَرَّهَا إِلَّا تَكُونُ لِجَرُولِ
وَلَا لِزُهَيْرِ وَابْنِهِ وَزِيَادِ
٢٢- فِدُونَكهَا يَا فَضْلُ مِنْي كَرِيمَةً
ثَنَّتْ لَكَ عَطْفًا بَعْدَ عَزِّ قِيَادِ
٢٣- خَلِيلِيَّةً فِي وَرْنِهَا فُطْرُبِيَّةً
نَظَانِرِهَا عِنْدَ الْمُلُوكِ عَتَادِي

هذا؛ ويختص المحور الثاني من هذا البحث بمعالجة للقصيدية في سياقها النقدي.

٢ / ٠ القصيدة في السياق النقدي

٢ / ١ مفارقة المقام للمقال

سبقت الإشارة إلى أن القصيدة المعنية قد أنشأها أبو نواس في مناسبة ابتناء الفضل بن يحيى داراً جديدة على ما ثبني دور العظماء، وأنشدها بين يديه وهو في الأوج من السرور والانبساط والعجب.

ولا ريب أن هذا الحادث معتاد ومألوف، وأن له نظائر كثيرة في تاريخ الشعر العربي كما قرأنا في الوصف البديع لبركة المتوكل عند أبي عبادة البحرني^(٨). بيد أن الخاذل لكل توقع في موقف أبي نواس أن يستفتح قصيدته بمطلع لا يخاطب فيه قصراً مشيداً، بل يخاطب رسماً بالياً يغشاه الذبول والقهر والانكسار، مذكراً نفسه بموانيق المودة وعهود الوفاء الواشجة بينه وبين الطلل؛ فيقول:

أَرْبَعُ الْبَلَى إِنَّ الْخُشُوعَ لِبَادِي عَلَيْكَ، وَإِنِّي لَمْ أَخُنْكَ وَدَادِي

ثم إن أبا نواس لا يقنع بهذا المطلع المُزلزل حتى يأتي في خواتيم قصيدته بطامةٍ أخرى؛ فيقول في حضرة الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك:

سَلَامٌ عَلَى الدُّنْيَا إِذَا مَا فُقِدْتُمْ بَنِي بَرْمَكٍ مِنْ رَانِحِينَ وَغَادٍ

وإذا كان التعريف المُجمَع عليه للبلاغة أنها: موافقة الكلام لمقتضى الحال = لم يكن عجباً أن يتطير الفضل ويتشام، ويقول للشاعر: نَعَيْتَ لَنَا أَنْفُسَنَا يَا أبا نَوَاس!

ومن ثم؛ عاب النقاد القصيدة، واتخذ عدد من مصنفات البديع والنقد هذا المطلع مثلاً سائراً دائماً الحضور عند الحديث عن شرط حسن الابتداء أو براعة الاستهلال أو براعة المطلع^(٩). ذلك أن المبدأ المستقر عند المتقدمين من النقاد والبديعيين هو وجوب تحلي الشاعر بغير قليل من الحيطة والحذر في مقام مطالع قصائد المديح من التورط في ما يسوء الممدوح، أو يُنبّه من غير قصد إلى عيب فيه، أو ما يبعث على الطيرة وسوء الفأل؛ يقول ابن حجة الحموي: "وقد نبه مشايخ البديع على يقظة الناظم في حسن الابتداء؛ فإنه أول شيء يقرع الأسماع، ويتعين على ناظمه النظر في أحوال المخاطبين والممدوحين، وتفقّد ما يكرهون سماعه، ويتطرون منه ليتجنب ذكره"^(١٠). وقد حظيت مخاطبة الملوك ومن يتصل بهم من الأمراء والوزراء والكتاب في هذا المقام بعناية خاصة؛ وذلك "لأنهم أشدّ الناس تطيراً من المكروهات، وعثرة الناظم في ذلك لا تُقال"^(١١).

ويعزز ذلك أن أهل العلم لم يعيخوا القصيدة من جهة صناعة الشعر والجمال الفني، فقد قال فيها قطرب (ت ٢٠٦هـ): "أجود شعر أبي نواس قصيدته؛ يمدح فيها الفضل بن يحيى بن خالد"^(١٢)، وقال ابن منظور: "وقصيدته في البرامكة التي هي: ((أربَع البلى)) من خيار شعره، وأثنى عليها المبرد ثناء كثيراً، ولكن جماعة طعنوا عليه فيها طعناً متوجهاً"^(١٣)؛ وإنما جاء الطعن من جهة مفارقة المقام للمقال. وتتوقف هنا في مورد الطعن على أقوال ثلاثة من أئمة نقد الشعر من المتقدمين، هم على الترتيب الزمني: ابن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢هـ) صاحب كتاب "عيار الشعر"، وأبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) صاحب "كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر"، وابن رشيق القيرواني (٣٩٠ - ٤٥٦هـ) صاحب كتاب "العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده"

٢/٢ رأي ابن طباطبا العلوي

أورد ابن طباطبا العلوي مطلع القصيدة، وذكر قصتها بعد تقديم يقول فيه: "وينبغي للشاعر أن يحترز في أشعاره ومفتتح أقواله مما يُتطير به أو يُستجفى من الكلام والمخاطبات كذكر البكاء، ووصف إقفار الديار، وتشتت الألف، ونعي الشباب، وذمّ الزمان، ويستعمل هذه المعاني في المرثي ووصف الخطوب الحادثة؛ فإن الكلام إذا كان مؤسساً على هذا المثال تطير منه سامعه، وإن كان يُعلم أن الشاعر إنما يخاطب نفسه دون الممدوح"^(١٤)، وقد أتبع ابن طباطبا قوله هذا بذكر مطالع من هذا الصنف لم يُصبها التوفيق للأعشى وذو الرمة^(١٥).

٢/٣ رأي أبي هلال العسكري

في الباب العاشر من "كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر" المخصوص بذكر المبادئ، يورد مؤلفه أبو هلال العسكري قولاً لبعض الكتاب يوصي فيه أصحابه فيقول: "أحسنوا - معاشر

الكتاب- الابتداءات فإنهن دلائل البيان"^(١٦). وقد ضمن الوصية مزيد عناية بقصائد المدح والتنهائي؛ وأورد في هذا السياق ما سماه **الابتداء المنكر** في قصيدة أبي نواس، ثم أضاف إلى ذلك طائفة من الابتداءات والقصص المشابهة، ترسيخاً لهذا المبدأ، ومن بينها قصة الخليفة المعتصم (١٧٩ - ٢٢٧هـ)، وكان ابتنى قصرأ فخماً، وعقد احتفاءً بذلك مجلساً عامراً بمظاهر الأبهة والنعمة "فاستأذنه إسحاق بن إبراهيم الموصلّي في النشيد فأذن له، فأنشد شعراً ما سمع الناس بأحسن منه في صفته وصفة المجلس، إلا أن أوله تشبيب بالديار القديمة وبقيّة آثارها، فكان أول بيت منها:

يَا دَارُ غَيْرِكَ الْبَلَى فَمَحَاكَ يَا لَيْتَ شِعْرِي! مَا الَّذِي أَبْلَاكَ؟

فتطير المعتصم منها، وتغامز الناس، وعجبوا كيف ذهب هذا عن إسحاق مع فهمه وعلمه وطول خدمته للملوك".^(١٧) وفي كلام العسكري تقرير للمبدأ لا في السياق النقدي فحسب، بل من حيث وجوب مراعاة الكلام لمنظومة التقاليد والأعراف الاجتماعية.

٢ / ٤ رأي ابن رشيق القيرواني

وترد قصة مطلع أبي نواس نفسها في كتاب ابن رشيق القيرواني **"العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده"**، فذكر ابن رشيق قصة الدار التي بناها بعض بني برمك، وصنيع أبي نواس في قصيدته، وما كان من أمر الممدوح؛ إذ **"اشمأز حتى كلع وظهرت الوجمة عليه"**^(١٨).

بيد أن ابن رشيق ينفرد عن ابن طباطبا والعسكري بتعقيب لافت للنظر، يستحق وقفة تأمل، وذلك إذ يقول: **"وزعم قوم أن أبا نواس قصد التشاؤم بشيء كان في نفسه من جعفر، ولا أظن ذلك صحيحاً، لأن القصيدة من جيد شعره الذي لا أشك أنه يحفل به، اللهم إلا أن يصنع ذلك حيلة منه، وستراً على ما قصد إليه بذلك"**^(١٩).

في هذا الاقتباس المهم من كتاب **"العمدة"** يلاحظ أنه ابتدأ كلامه بحكم نقدي على القصيدة؛ يقرر فيه أنها من جيد الشعر، ومن ثم لا بدّ أنها كانت موضع عناية واحتفال من أبي نواس، وأنه يستحيل لذلك أن يكون استفتاحه هذا عن غفلة أو سهو أو إساءة، وأن يكون منه ذلك تورطاً مشبهاً لما تورط فيه إسحاق الموصلّي في مجلس المعتصم، حين استدعى تغامز الناس عليه، ودهشتهم من صنيعه. وبنى ابن رشيق على هذه المقدمات استبعاده قصد أبي نواس إلى التشاؤم للفضل، فقال: **"ولا أظن ذلك صحيحاً؛ لأن القصيدة من جيد شعره"**، وأرجع السبب إلى ما كان بينه وبين جعفر البرمكي أخي الفضل من جفاء.

والرأي أن المقدمات التي ساقها ابن رشيق تبدو صحيحة، وأن نفيه أن يكون أبو نواس قد قصد حمل الفضل على التطير والتشاؤم لما في نفسه من الكره لأخيه جعفر هو أيضاً استنتاج يبدو أن له ما يعززه. ويتأسس اقتناعنا بذلك على أن العلاقة بين أبي نواس والفضل كانت شديدة الوثاقة، وأن الفضل كان من أهم ممدوحيه، كما أن ما يتصف به أبو نواس من الذكاء والحنق وطول مصاحبته لهذه الطبقة من الكبار وتمرسه بالتعامل معها يُستبعد معه القصد إلى مساءة الفضل. لكن كلام ابن رشيق يشتمل على عبارة **غامضة وملهمة في آن واحد**، وهي قوله: **"اللهم إلا أن يصنع ذلك حيلة منه وستراً على ما قصد إليه"**. وتطرح هذه العبارة الملهمة والغامضة طائفة من الأسئلة التي تبحث عن إجابة تُجملها في ما يأتي:

- (١) أحقاً كان تجافي أبي نواس عن براعة الاستهلال، وحسن الابتداء -مع قدرته عليه- عن قصد وتعمد؟
- (٢) إن كان صنيعه عن قصد وتعمد؛ فما الحامل له على ذلك؟
- (٣) أكان موقفه من جعفر البرمكي سبباً في صناعة هذا المطلع الصادم؟ وكيف يصح ذلك وهو يخاطب جميع بني برمك قائلاً: "سَلَامٌ عَلَى الدُّنْيَا إِذَا مَا فُقِدْتُمْ بَنِي بَرْمَكٍ...؟".
- (٤) ماذا وراء عبارة القيرواني: "اللهم إلا أن يصنع ذلك حيلة منه وستراً على ما قصد إليه"، وما عسى أن يكون ذلك القصد المستور الذي يحتال أبو نواس لإخفائه بمثل هذا المطلع المشكل؟

إن التماس الجواب المقنع عما تقدم من أسئلة يقتضي الخروج من ضيق السياق النقدي إلى فضاء السياق التاريخي، فكل الأدلة والإشارات تقضي إلى ترجيح القول بأن صنيع الشاعر لم يكن عن جهل بمقتضيات الفن أو قواعد الصناعة، وأن ثمة أموراً مستورة تقبع وراء الأكمة، وأن المحاكمة النقدية للقصيدة جاءت قاصرة عن تقديم تفسير مقنع لما يحيط بالنص من إشكالات. وكان حتماً على الباحث الانتقال من الحديث المحصور في إطار النص، إلى الحديث عن الظرف الخارجي المحيط؛ وهذا ما يحاول هذا البحث الكشف عنه في ما يأتي من محاور، بادئاً باستطلاع السياق التاريخي الحاف بالقصيدة.

٣/ القصيدة في السياق التاريخي

٣/ ١ حديث النكبة

لعل هذه القصيدة أن تكون من أندر الوثائق الشعرية التاريخية التي تُمْتُتْ بأوثق صلة إلى النكبة الكبرى التي حلت بالبرامكة على يد هارون الرشيد عام ١٨٧هـ. ولا تزال أسرار هذه النازلة من أعصى الحوادث على التفسير في تاريخ الخلافة العباسية، بل في تاريخ الدول والممالك الإسلامية على الإطلاق.

معلوم أن الجدَّ خالد بن برمك كان قديم الصلة ببيت الخلافة منذ عهد الخليفة الأول أبي العباس عبد الله السفاح (١٠٤ - ١٣٦هـ)، وأنه حظي بالمكانة المرموقة، والمناصب الرفيعة في عهد الخليفة الثاني المؤسس أبي جعفر المنصور (٩٥ - ١٥٨هـ). أما الخليفة الثالث أبو عبد الله المهدي (١٢٧ - ١٦٩هـ) فقد استوزر الابن يحيى بن خالد البرمكي، وعهد إليه بولده هارون ليتربى في حجره، فكان هارون أماً للفضل في الرضاة ولقد عرف هارون الرشيد ليحيى بن خالد قدره وإخلاصه في خدمته والنصيحة له. وحين عزم الخليفة الرابع موسى الهادي (١٤٤ - ١٧٠هـ) على خلع أخيه هارون من ولاية العهد وجعلها لابنه الذي لم يكن قد بلغ الحلم، كان لحكمة يحيى بن خالد وحسن تدبيره كبير الأثر في الاحتيال لثني الهادي عن الإقدام على ذلك، وفي تثبيت ولاية العهد للرشيد^(٢٠). فكان أن غضب عليه الهادي وحبسه، ولم ينقذه من القتل إلا موت الهادي في الليلة التي كان قد عزم فيها على إنفاذ قتله. فلما آلت الخلافة إلى الرشيد أخرج من السجن، واستوزره، وقال له: "يا أبت! -وكان لا يناديه إلا بالأبوة- أنت أجلسني هذا المجلس ببركة رأيك، وحسن تدبيرك، وقد قلدتك أمر الرعية، وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم بما ترى، واستعمل من شئت، وأسقط من شئت".^(٢١) وبذلك آل أمر تدبير شؤون الخلافة إلى آل برمك: يحيى وابنيه

الفضل وجعفر في الدقيق والجليل، وظلَّ الأمر على ذلك أمداً ناهز سبعة عشر عاماً، حتى إذا بلغت ثوائر الفتنة مبلغها من نفس الرشيد حبس يحيى وأبناءه: الفضل ومحمداً وموسى، وصادر أموالهم وجميع ما يمتلكون، وشرَّد بهم أولياءهم. أما ابنه جعفر بن يحيى - وكان أوثق البرامكة صلة بالرشيد وأعظمهم تمكناً عنده- فقد بعث إليه بمن يضرب عنقه ويحمل رأسه إليه، وأنفذ جثته إلى مدينة السلام، فقطعت نصفين، وصلبتا على الجسر، ونصب رأسه بمدينة السلام. وما بين غاية التكريم والتبجيل ومشهد الحبس والقتل والتنكيل أسراراً وشايات وظلمات من الفتن والمكاييد بعضها فوق بعض.

وليس من غايات البحث فحص أسباب النكبة والخوض في الكشف عن أسرارها، فهذه قضية تقع خارج أهدافه، كما أن الرشيد نفسه وهو صانع النكبة كتم حديثها عن أخصَّ خواصه، فلم يُحدِّث به أحداً؛ وقد ذكر أبو بكر الصولي: "أن عُليَّة بنت المهدي أخت الرشيد قالت له: ما رأيتُ لك يوم سرور منذ قتل جعفرأ؛ فلأي شيء قتلته؟ فقال: لو علمتُ أن قميصي يعلم السبب الذي قتلته له جعفرأ لأحرقته".^(٢٢) ولذا؛ فالخوض في بحث الأسباب والدواعي والكشف عن حقيقتها برأي قاطع هو بعيد من أهداف البحث، كما أن الوصول إلى تشخيص يُطمأن له هو ضرب من المحال^(٢٣). أما همَّ الدراسة الأول فهو تتبع القران التي تساعد على كشف المُخبأ من أمر قصيدة أبي نواس، وتوكيد ضرورة الاستعانة بالسياق التاريخي عند التماس أجوبة عن الأسئلة التي تطرحها الأحكام النقدية، وذلك من خلال التحليل النصي، واستحضار الطرف التاريخي لفك ألغاز هذا النص المشكل.

وسيتولى المحور الثالث من البحث إضاءة جوانب العلاقة بين القصيدة وسياقها التاريخي، وذلك بالحديث عن صناع الحدث، وهم: بيت الخلافة، وجبهات الصراع، وأبو نواس.

٢ / ٣ صناع الحدث

١ / ٢ / ٣ بيت الخلافة

تاريخ خلافة بني العباس هو تاريخ السلطة المطلقة؛ فالخليفة هو عمود بيت الخلافة، وهو بأيلولة الخلافة إليه ومبايعته مطلق الإرادة في مناصب الدولة الإدارية والعسكرية تولية وعزلاً وتقريباً وإبعاداً، وقد يعود فيعزل من ولى ويؤلى من عزَل. والخليفة كذلك مطلق اليد في الأموال عطاءً ومنعاً ومصادرة، وفي الدماء والحريات قتلاً وحبساً ومنأً. غير أن هذه السلطة التي لا تعرف حدوداً تظل رهينة في أديانها بأمرين: أولهما - صراع أبناء بيت الخلافة بعضهم مع بعض من الطامحين في منصب الخليفة، ومن الراغبين في استخلاف أبنائهم بتدخل من عقائل البيت العباسي كالخيزران (ت ١٧٣هـ) أم الرشيد، وزبيدة (ت ٢١٦هـ) زوجته، ومن المتكالبين على حيازة الإقطاعات واقتسام مجالات النفوذ. والأمر الآخر - المطبخ السياسي المزدهم بالوزراء والحجَّاب والكتَّاب ومن يلوذ بهم من الشعراء والأدباء الطامحين لنيل الهبات والجوائز، وكانت بيوتهم تغصُّ بالعيون والرقباء والمتخزَّرين من العبيد والإماء، وتتسلط على تدبير أمورها بأفانين من الدسائس والكيد والمصالح المتعارضة والمتناقضة، وجميع هؤلاء وأولئك يمارسون نشاطهم راغبين وراهبين، وكانوا هم المنخرطين حقاً في نقل الأخبار والشائعات وحوك المؤامرات؛ لينتهي الأمر في آخر المطاف إلى الوزراء والحجَّاب فيحكموا فيه بما يرون إن استطاعوا، أو بما يُفرض عليهم من قبَل الخليفة.

ولقد كانت ولاية العهد -حتى في حقبة تأسيس الدولة و عنفوانها- مجال تنازع كاشف عن الكيفية التي يجري بها تصريف الأمور؛ إذ عهد أبو العباس السفاح بولاية العهد لأخيه أبي جعفر المنصور ثم لعمه عيسى بن موسى (ت ١٦٧هـ) على التوالي، لكن المنصور أكره عمه على التنازل عن ولاية العهد لابنه المهدي^(٢٤)، ثم إن المهدي جعل ولاية العهد في ولديه على التوالي: موسى الهادي ثم هارون الرشيد، غير أن الهادي أراد أن يقصي أخاه هارون عنها، ويجعلها لابنه الذي لم يكن قد بلغ الحلم، إلا أن الأمور لم تجر على هواه، واستقرت ولاية العهد لأخيه الرشيد. ثم إن هارون جعلها في أبنائه الثلاثة على التوالي: الأمين ثم المأمون ثم القاسم، وسجل ذلك في كتاب علقه في البيت الحرام، وأخذ عليه الموثيق منهم ومن وجوه الهاشميين. ومن عجب أن الأمين نوى في نفسه على الغدر، وأضمر خلع أخيه المأمون وهو يؤدي القسم في البيت الحرام على إنفاذ إرادة أبيه؛ ثم صار الأمر بين الأخوين إلى الوقيعة والحرب والقتل. وأما جماعة الوزراء واللاندون بهم من حجاب وكتّاب فقد برز من بينهم جبهتان تداولتا الإمساك بزمام السلطة، وتنافستا على مرضاة الخلفاء؛ وهما جبهة آل الربيع بن يونس، وجبهة بني برمك. وتتنطق القرائن بأن صناعة النكبة لبني برمك كانت بتدبير فاعل خبيث من آل الربيع، وفي الصدارة منهم: الفضل بن الربيع. وسيحاول هذا البحث في ما يأتي من الحديث الكشف عن مظاهر الصراع والتدبير بين الجبهتين، وتعيين موقع أبي نواس من هذا الصراع، وهو الذي اقترب من الرشيد، ونام الأمين من بعد، وكان ذا حظوة عند كلا الرجلين: الفضل بن الربيع والفضل ابن يحيى بن برمك، وضالعا في هجاء أخيه جعفر بن يحيى. وهكذا يجد الباحث نفسه أمام خريطة معقدة، بل بالغة التعقيد من العلاقات المشتبكة والمصالح المتصادمة، ذات الخيوط المتساوقة أحيانا والمتقاطعة في كثير من الأحيان. تلك العلاقات التي تصنع الأحداث وتوجه مساراتها، وتحدد مصائر الفاعلين. ويتولى المبحث الآتي الكشف عن دور الفريق الثاني من صنّاع الحدث؛ وهم آل الربيع بن يونس.

٣ / ٢ / ٢ آل الربيع: تواضع المنشأ وبراعة الكيد

يصلح بيت الربيع بن يونس أن يكون مثالا للبيت الذي يختلف حال أهله بين البدايات المتواضعة الدنيئة والنهايات العالية السنيئة؛ بما حازوا من صفات الدهاء والحيلة وسيء المكر والخبرة بدهاليز السياسة وأقيبتها، وهي خلائق توارثها الأبناء من الآباء. واللاعبان الأساسيان على مسرح الأحداث في مقامنا هذا، هما: الربيع بن يونس وابنه الفضل بن الربيع. كان الجد الأكبر لآل الربيع هو يونس بن محمد -وكنيته أبو فروة- من شطّار المدينة، وتعلّق أمّه من الإماء فأولدها ابنه الربيع، فولد الربيع عبداً، وابتاعه خال أبي عبد الله السفاح وأهداه إليه؛ وبهذا اتصلت أسباب يونس ببيت الخلافة^(٢٥)، وهيات له مواهبه أن يرتقي سلم المناصب، فاتخذ المنصور أول الأمر حاجباً، ثم استوزره بعد أن أقصى وزيره أبا أيوب المورياني (ت: ١٥٤هـ)^(٢٦)، لكن أصله القديم ظل يطارده وهو وزير؛ فقد جاء في "وفيات الأعيان" أنه لم يكن يُعرف له أب، وأنه كان في مجلس للمنصور حضره بعض الهاشميين، فأكثر الهاشمي من ذكر أبيه ومناقبه، فلما أنكر عليه الربيع الحديث عن أبيه في حضرة الخليفة أجابه الهاشمي: "أنت معذور يا ربيع؛ لأنك لا تعرف مقدار الآباء. فحجل منه"^(٢٧). وكان عبد الله بن عيَّاش "يطعن في نسب الربيع طعناً قبيحاً، ويقول للربيع: فيك شبة من المسيح؛ يخدمه بذلك، فكان يكرمه لذلك حتى أخبر المنصور بما قاله له، فقال: إنه يقول لا أب لك، فتنكر له بعد ذلك"^(٢٨). وقد قال عنه الخطيب البغدادي: "لم ير في

الحجابه أعرق من ربيع وولده الفضل. كان ربيع حاجب أبي جعفر ومولاه، ثم صار وزيره، ثم حجب للمهدي، وهو الذي بايع المهدي وخلع عيسى بن موسى. ومن ولده الفضل حَجَب هارون ومحمداً المخلوع، وابنه عباس بن الفضل حجب الأمين؛ فعباس حاجب ابن حاجب ابن حاجب".^(٢٩)

إذن؛ فقد كان آل الربيع بيتاً عريقاً في صناعة التآمر، وكان الربيع بن يونس مكيناً في صنع الانقلابات وقادراً على تحقيق مآربه في اقتناص الفرص وتسلم المناصب. ولعل ما صنعه بأبي عبيد الله وزير المهدي ليقيصيه ويحل محله، ويرد عليه ما أصابه من إذلال وإهانة على يديه مثل ظاهر على براعته في الكيد. لقد حاول أن يجد مغمزاً في أبي عبيد الله يقع به الخليفة بأقصاده فلم يجد؛ ذلك أن أبا عبيد الله كان متمتعاً بالكفاية والحدق والعفاف وطهارة اليد، لذلك لم يجد الربيع مساعداً للأذى، فاستشار فيه فذله من استشاره على أن يكيد للرجل من طريق ابنه؛ وكان الابن متهماً بالزندقة. ولما جاء بالابن مقيداً إلى الخليفة أشار الربيع على الخليفة بأن يتولى الوزير بنفسه قتل ولده، فسق ذلك على الأب ولم يفعل، فتولى القتل أحد الحاضرين، ولم يكتف الربيع بذلك، بل استخدم بعض خدم الخليفة فأغراه بالرشوة، وكانت تعليماته لل خادم المرتشي أنه: "إذا دخل أبو عبيد الله إلى المهدي فصار بحضرتة، قَبِضْتُ على سيفه، وَمَشَيْتُ إلى جانبِه؛ فسينكر ذلك عليك أمير المؤمنين، فتقول: يا أمير المؤمنين قتلت ابنه بالأمس، فكيف آمنه عليك أن يخلو بك ومعه سيفه اليوم؟! ففعل ذلك الخادم فكان ذلك مما أوحش المهدي من أبي عبيد الله." ^(٣٠)

ولقد ورث الفضل مواهب أبيه في المكر، فأتقنها وزاد عليها وتفنن فيها، "ولما آل الأمر إلى الرشيد واستوزر البرامكة، وكان الفضل بن الربيع يروم التشبه بهم ومعارضتهم، ولم يكن له من القدرة ما يدرك به للحاق بهم، فكان في نفسه منهم إحن وشحناء" ^(٣١). وكان بيت عيونه ورقبائه من خدم البرامكة وخواصهم يتسقطون الأخبار والأسرار ^(٣٢). ويذكر ابن خلكان أن "من أسباب زوال أمر البرامكة تقصيرهم بالفضل بن الربيع، وسعي الفضل بهم، وتمكنه من المجالسة مع الرشيد فأوغر قلبه عليهم، ومالاه كاتبهم إسماعيل بن صبيح" ^(٣٣)، حتى كان ما كان" ^(٣٤). ولعل من أظهر الحوادث الكاشفة عن دور الفضل ما تورده المصادر من أنه جاء إلى جعفر البرمكي بعشر قصص (أي: شكوى) يلتمس منه توقيعها، فعَلَّ جعفر في رفضها، فخرج الفضل غاضباً متوعداً وهو يقول:

" عَسَى وَعَسَى يَنْتَهِ الرِّمَانُ عِنَانَهُ
بِتَصْرِيْفِ حَالِ والرِّمَانُ عَثُورُ
فَتُنْقِضَى لِبَانَاتٍ وَتَشْفَى حَسَانِيَّتْ
وَيُحْدِثُ فِي بَعْضِ الأُمُورِ أُمُورُ

فسمعه يحيى وهو ينشد ذلك، فقال له: عزمت عليك يا أبا العباس إلا رجعت، فوقع في جميع الرقاع، ثم ما كان إلا القليل حتى نُكِبوا على يده، وتولى بعدهم وزارة الرشيد" ^(٣٥)، وتلك كانت هي غاية الغايات التي كان يسعى لها الفضل بن الربيع.

وخلاصة القول في آل الربيع؛ أن الخليفة أبا جعفر المنصور ورث الفضل وأباه عن أخيه أبي العباس السفاح، وأنهما مكنا لأنفسهما عند الخليفة المهدي، ثم عند الهادي، وفي خلافته مات الوالد، وأن الفضل واصل مسيرته مع الرشيد، ومكّن لنفسه عنده حتى صار له نديماً ورفيقاً في رحلته التي وافته المنية فيها، وبلغ غاية التمكن مع ابنه الأمين؛ فهو الذي ثبتته في الخلافة، وهو

الذي زين له خلع أخيه المأمون من ولاية العهد؛ إذ كان يخاف على نفسه لأنه محسوب على الأمين، فلما قُتل الأمين وظهر أمر المأمون استخفى مدة طويلة. وعندما خرج إبراهيم بن المهدي على المأمون "ساس نفسه ولم يقم معه فعفا عنه المأمون." (٣٦).

لذلك يمكن أن يوصف بيت آل الربيع في إيجاز مُعبر: بأنه بيت المنشأ المتواضع الذي يتطلع أهله إلى السلطة والثروة والنفوذ عند الخليفة، ويتخذون لذلك أقصى ما برعوا فيه من فنون الكيد وحوك المؤامرات والدسائس. وقد كان آل برمك هم العقبة الكبرى التي حالت بين آل الربيع وبين ما يشتهون؛ ومن ثم كان البرامكة الهدف المنصوب لدسائسهم، حتى انتهى الأمر إلى المحنة التي بغتتهم واستأصلت شأفتهم، وأفسحت الطريق لعدوهم اللدود. وقد احتفظ التاريخ بالجانب الأكبر من أسرار المحنة ومقدماتها، ومن فنون الكيد التي كادها ابن الربيع لهم، حتى صار من الصعب القطع أو الترويج في أمر أسباب حدوثها برأي يطمئن إليه الباحثون.

٣ / ٢ / ٣ بنو برمك: فتنة السلطان وسوء العاقبة

أما الطرف الآخر الذي كان ضحية النكبة المزلزلة المشهورة فهم بنو برمك؛ فبعد أن مكّن لهم الخلفاء منذ اتصل بخدمتهم جدّهم خالد بن برمك (٩٠ - ١٦٣هـ) في عهد الخليفة العباسي الأول أبي العباس السفّاح، باتخاذ إياه وزيراً، ثم وزر من بعد السفّاح لأخيه المنصور، وكان من المشاركين في صنع الأحداث واتخاذ القرارات الكبرى إلى أن توفي في خلافة المهدي. وورث ولده يحيى بن خالد (ت ١٩٠هـ) أكثر مواهب الأب وخصاله؛ فكان مضرب المثل في الجود والحلم والرأي، بل إنه كان من أكمل أهل زمانه أدباً وفصاحة وبلاغة، مما أهّله لأن يترجم له ياقوت الحموي في كتابه "معجم الأدباء" ترجمة مستفيضة. (٣٧). وعلل الحموي لذلك فقال: "وإنما دخل في شرط كتابنا من جهة بلاغته وتقدمه على أكثر أهل عصره في الإنشاء والكتابة." (٣٨).

وكما كان ليحيى بن خالد هذا الشأن العظيم كان لأولاده من الخصال والمزايا ما استحقوا به الاضطلاع بمهام الحكم وإدارة شؤون الخلافة. وقد أجمعت المصادر على ما يتمتع به بنوه الفضل وجعفر وموسى من خصال ورثوها عن أبيهم، وبخاصة الفضل وجعفر (٣٩)، وقد وضعهم هذا التميز في أتون الصراع الضاري على السلطة والنفوذ، ولا سيما مع آل الربيع وكبيرهم الفضل الذي تولى حجابة الرشيد، ثم آلت إليه الوزارة بعد حصول النكبة.

وليست الغاية من هذا المبحث تفصيل القول في واقعات الصراع بين جبهتي آل الربيع وآل برمك ومن يلود بهما من الكتّاب والشعراء وعيون التجسس؛ فمكان ذلك مصادر التاريخ وكتب التراجم، وإنما الغاية هي تقديم صورة واضحة الملامح لطبيعة الظروف التي شكّلت جانباً من حياة أبي نواس وعلاقاته المعقدة بالشخصيات ذات النفوذ، وأثر الصراع بين الجبهتين في إنتاجه الشعري، وكيف أدى ذلك إلى صناعة هذه القصيدة موضوع الدراسة وإلقائها بين يدي الفضل بن يحيى البرمكي، ومجيئها على الصورة التي لم تُرقّ للنقاد. ولتحقيق هذه الغاية ينبغي أن يوضع في الاعتبار أمور في ما يأتي أهمها:

أولاً - أن الرشيد كما عرفنا كان قد أخرج أمور الرعية من عنقه إلى يحيى بن خالد وابنيه الفضل (ت: ١٩٣هـ) وجعفر (ت: ١٨٧هـ) منذ انعقدت له البيعة.

ثانياً - أن الرشيد اختص نفسه بجعفر - الذي كان موضوع هجاء من أبي نواس -، فقد "غلب جعفر عليه غلبة شديدة، وصار لا يقدم عليه أحداً، وأنس به كل الأُنس"، "حتى إن الرشيد اتخذ له ثوباً له زيقان، وكان يلبسه هو وجعفر جملة" (٤٠)، وكان يقول ليحيى الوالد كثيراً: "أنت للفضل وأنا لجعفر" (٤١)؛ ومن ثم "كان [جعفر] من علو القدر، ونفاذ الأمر وعظم المحل وجمالة المنزلة من هارون الرشيد بحالة انفرد بها" (٤٢).

ثالثاً - أن الفضل ممدوح أبي نواس كان - على جوده وشجاعته وكونه أبا الرشيد من الرضاة - "غارقاً في اللذات المردية حتى تعطلت الأمور" (٤٣)، "وكان فيه كبر شديد" (٤٤).

رابعاً - كان الأخوان من طبيعة مختلفة، ولعل أوضح تعبير عن اختلاف سمات الشخصية بين الرجلين ما قاله إبراهيم الموصلي رداً على من سأله أن يصف له أبناء يحيى بن خالد، فقال: "أما الفضل فيرضيك بفعله، وأما جعفر فيرضيك بقوله" (٤٥).

خامساً - أن العلاقة بين الأخوين الفضل وجعفر كانت تغشاها الجفوة، فقد "كان الفضل يلتبس من جعفر أن يعطيه بعض اختصاص الرشيد إياه من نفسه، مثل ما كان يعطيه قبل ذلك" (٤٦)، ولذا كان كثيراً ما يقع أحدهما في أخيه.

سادساً - ثمة قرائن تشهد بأن من عقائل بيت الخلافة، وبخاصة الخيزران أم الرشيد، وزوجه زبيدة - من كان له إسهام في صنع الحدث. ويذكر ابن خلكان ما كان من تحريض زبيدة للرشيد ضد يحيى بن خالد وشكواها من تضيقه على الحرَم. وجعل بعض المؤرخين تحريضها هذا سبباً بين أسباب وقوع النكبة (٤٧)، وليس ببعيد أن يكون ذلك من نتائج الصراع المكتوم بين جبهتي العرب الهاشميين وذوي الأصول الفارسية في بيت الخلافة.

سابعاً - أن الفضل بن الربيع خصيم البرامكة وعدوهم كان ضالماً في كل ما يجري، وأعانه على ذلك قربه من الرشيد وقيامه بوظيفة الحجابة له، وتفننه في الدس والإيقاع بين الرشيد وبينهم، وتجييشه لمن يتجسسون ويتخبرون ويرفعون القصص (أي: الشكاوى) المجهولة التي تحذر الرشيد من تغول البرامكة على سلطاته، وتدخل في روعه أنهم يعدون العدة للانقلاب على الخلافة، والاستيلاء على الملك (٤٨).

ويوشك تدبيرنا لهذه الأمور السبعة أن يؤدي بنا إلى تصور واضح لمسرح الأحداث والشخصيات الرئيسية الفاعلة في صناعة السياسة؛ فهناك المداخلة الحميمة بين الخليفة وجعفر البرمكي، وما كان للفضل أخيه من حظ من التكريم وإن كان مشوباً بالتهميش، وكان ابن الربيع يجالس الرشيد ويستولي على أذنه ويحوك الدسائس. أما المراقب الحصيف الوحيد للموقف فهو البرمكي الوالد يحيى بن خالد، فهو الوحيد الذي كان يتخوف من المحبة المتطرفة بين الرشيد وجعفر، وقال للرشيد: "يا أمير المؤمنين! أنا والله أكره مداخلة جعفر معك، ولست أمن أن ترجع العاقبة في ذلك عليّ منك، فلو أعفيتها واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم أعمالك كان ذلك واقعاً بموافقتي. قال الرشيد: يا أبت، ليس بك ذلك، ولكنك تريد أن تقدم عليه الفضل" (٤٩). لكن يحيى كان على ثقة مما يرى، وكثيراً ما كان يقول عن جعفر: "لا يكون هلاك هذا البيت إلا بسببه" (٥٠).

غير أن مراحل الضغينة كانت تغلي في صدر الرشيد رويداً رويداً، حتى بيّت النية وعقد العزم على الإيقاع ببني برمك واستئصال شأفتهم، وعلى اختصاص جعفر - أحبهم إليه وأشدّهم لصوقاً به - بأوجع مصير وأبشع قتلّة، فصدق بذلك توقع البرمكي الوالد، إذ رجعت العاقبة عليه وعلى سائر الأسرة بما فاق كل تصور.

بيد أن مناط العجب العاجب في قضية مصرع جعفر أمران:
الأول - بشاعة القتلّة، وما أعقبها، وما أظهره الرشيد من قسوة قلب تناقض كل المناقضة سابق المحبة وحميمية الألفة.

والآخر - ما أحاط به عزمه على القتل من تكتم شديد، وتنفيذه من تمويه ومباغطة أذهلت جعفر نفسه، حتى إنه سأل مبعوث الموت - غير مصدّق - أن يراجع الرشيد في الأمر. ويروي الجهشيار قصة الحدث الرهيب، نوردها بتصريف يسير؛ يقول: " ولم يزل جعفر بن يحيى مع الرشيد في حالة من الأتس والانبساط.. وجعفر يسايره خالياً، وانصرف ممسياً إلى القصر الذي كان ينزله بالأنبار وهو معه، فضمه إليه وقال له: لولا أنني أريد الجلوس الليلة مع النساء لم أفارقك. فصار جعفر إلى منزله، وواصل الرشيد الرُّسل إليه بالألطف إلى وجه السَّحر، ثم هجم عليه مسرور الخادم... فحُمِل وضُربت عنقه، وأتى الرشيد برأسه... ثم أعقب ذلك إنفاذ جثته إلى مدينة السلام وصلّبه وإحراقه." (٥١)

ومع هذه الفتنة المدلّهمة وتقاطع الولاءات واصطدام بعضها ببعض كان الشعراء وطلاب الهيئات والجوائز من العلماء في وضع بالغ الصعوبة. ولم يكن أبو نواس بدعاً من هؤلاء.

٤ / ٠ أبو نواس وتقاطعات الولاء

٤ / ١ أبو نواس بين منافسيه

في مثل هذه الأحقاب السياسية من البدهي أن تروج سوق الشعر والشعراء والأدباء، وأن تعمر القصور بأهل الطرب والغناء والندامي وغيرهم من طلاب الجوائز والحظوة الملازمين لأبواب السادة والكبراء، فقد كان هؤلاء هم القوة الناعمة التي يسخرها كثير من الكبراء لتحقيق مآربهم والكيد لخصومهم. ولقد كان شعراء ذلك العصر يجتمعون - اختياراً واضطراً - على مدح الخليفة الذي هو مصدر كل السلطات، أما في ما وراء ذلك فتتوزعهم الولاءات المتصارعة، ويتلمس كل وجهته التي يجد فيها مبتغاه، وسلاحهم في ذلك المدح والهجاء، بل إن بعضهم كان كثيراً ما يتردد بين المدح والهجاء للشخص الواحد بحسب تغير الأحوال. وكان التنافس والتحاسد مفضياً إلى حصول الكيد والتآمر والتهاجي في ما بينهم، فوجدنا انشعاب الولاءات وتقاطعها، وحروب التهاجي تستعر أحياناً بين كبار الشعراء من أمثال أبي نواس وأبي العتاهية (١٣٠ - ٢١١هـ)، وأبان اللاهقي (ت: ٢٠٠هـ)، والرقاشي (ت: ٢٠٠هـ)، وسلم الخاسر (ت: ١٨٦هـ)، ومسلم بن الوليد (ت: ٢٠٨هـ)، ومروان بن أبي حفصة (١٠٥ - ١٨٢هـ). وتذكر الأخبار أن عدداً منهم اجتمع على باب الفضل بن يحيى ليمدحوه، وأن الفضل حكّم فيهم أحمد بن سيّار الجرجاني، فسعى الشعراء إلى الجرجاني وحرصوه على الحظّ من شعر أبي نواس ففعل، فغضب أبو نواس وهجا الجرجاني، لكن الفضل بن يحيى استرضى أبا نواس، وعزل الجرجاني عن التحكيم." (٥٢).

وهكذا كُتِب على أبي نواس أن يزاحم الأقران في هذا المعترك بقصائد ومقطوعات من جيد الشعر،

ومن بينها مدحته للفضل بن يحيى التي هي موضوع الدراسة. وعلينا الآن أن نتوقف بنظرة تأمل عند نتاج أبي نواس الشعري المتعلق بصانعي حدث النكبة.

٢ / ٤ المدح والهجاء في شعر أبي نواس

ربما كان أقصد الطرق وأقصرها لرصد سمات العلاقة بين أبي نواس وصانعي الحدث، والكشف عما وراء قصيدته في مدح الفضل بن يحيى = هو تأمل بابي المدح والهجاء في ديوانه. إن استقراء هذين الغرضين يكشف عن تقلب أبي نواس بين حالي السخط والرضا تجاه المقصودين بالمدح أو الذم من الشخصيات ذات العلاقة بالبرامكة وما حصل لهم، وقد ظهر بالرصد الكمي للقصائد والمقطوعات في رواية الصولي:

أولاً - المدائح (٥٣)

اسم الممدوح	عدد القصائد/ المقطوعات	المجموع
الفضل بن الربيع	١٤	
العباس بن الفضل بن الربيع	٥	
محمد بن الفضل بن الربيع	٢	
جعفر بن الربيع	١	
المجموع (أل الربيع):		٢٢
يحيى بن خالد البرمكي	١	
الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي	٢	
هارون الرشيد	٦	
محمد الأمين	٢٦	

ثانياً - الأهاجي (٥٤)

اسم المهجو	عدد القصائد/ المقطوعات	المجموع
جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي	٧	
أل برمك (جملة)	٢	
الرقاشي (الشاعر)	٨	
أشجع السلمي	٣	
أبان اللاحقي	٢	
أحمد بن سيّار الجرجاني	١	
إسماعيل بن صبيح	٦	
إسماعيل بن سهل بن نوبخت	٣	

يُسندُ من القائمة السابقة على ملاحظ:

أولها - أن الفضل بن الربيع وأبناءه وأخاه قد حظوا بالنصيب الوافر منها (اثنتان وعشرون مدحة، اختص الأب وحده منها بأربع عشرة مدحة).

ثانيها - أن قرابة نصف عددها قد ذهب إلى الخليفة محمد الأمين (ست وعشرون مدحة)، على حين لم يحظ الرشيد إلا بست فقط. ونحن نعلم أن خلافة الأمين قد جاءت تالية لخلافة الرشيد، ومن ثم فإنه لا صلة مباشرة بينها وبين حادثة النكبة؛ غير أن لهذا الرقم دلالة مهمة سيأتي الكلام عنها في ما يأتي إن شاء الله.

آخرها - أن جعفر بن يحيى أخا الممدوح قد ناله من هجاء أبي نواس نصيب غير قليل. أما التهاجي بين أبي نواس ومنافسيه من الشعراء فهو أمر متوقع ولا يثير الدهشة.

إن تأمل هذه الملاحظات الكمية لاستكشاف العلاقات والولاءات المؤثرة في إبداع أبي نواس يفضي إلى عدد من النتائج ذات الدلالة؛ فالملاحظ أن أبرز ممدوحيه من شخصيات الصف الثاني هو الفضل بن الربيع، الذي هو العدو الأول للبرامكة، ووارث نفوذهم بعد النكبة، ودَعَك من مدحه الرشيد والأمين فإنه أمر متوقع ومفروغ من أسبابه. وقد امتدت علاقته بابن الربيع إلى ما بعد عهد الرشيد، حين ولي الأمين الخلافة (١٩٣-١٩٨هـ)، ودانت الأمور لابن الربيع، وصار هو صاحب الحلّ والعقد^(٥٥)، وكان ابن الربيع وسيلة أبي نواس وداعمة القويّ للتوصل إلى منادمة الأمين وإلقاء الشعر بين يديه بعد أن أنس الرغبة الملحة عنده في ذلك؛ جاء في "مختار الأغاني" لابن منظور: "كان الفضل بن الربيع قد استأذن له عند الأمين بعد أن ألح عليه في ذلك، فلما دخل على الأمين، دهش وتنتع وحار، فلما مثل بين يديه امتنع عليه الشعر، وأرتج عليه ورام الإنشاد بكل طريق فلم يقدر على شيء، فوقف ملياً لا ينطق بشيء، وجعل يلحظ الفضل؛ قال أبو نواس: فسمعت الفضل يقول: جلالة الخلافة وهيبة الإمامة وعظمة هذا المقام الشريف، فيجعل هذا يوم السلام، وغمزني الفضل بعينه فخرجت." ^(٥٦) ثم يذكر الخبر ما كان بعد ذلك من إلحاح أبي نواس على إعادة الكرّة، وأن ابن الربيع أظهر له تخوفه من الفضيحة إن عاوده الإخفاق، لكنه اجتاز اللقاء الثاني بنجاح، وابتسم له الأمين ابتسامة الرضا؛ يقول أبو نواس: "فجعل يتهلل وجه الفضل سروراً إلى أن فرغت، وخرجت مسروراً." ^(٥٧) كذلك نرى ابن الربيع يشفع لأبي نواس عند الأمين ليخرجه من السجن حين تجاوز حدوده وقال شعراً يسيء إلى مقام الخلافة. كل أولئك يدل دلالة واضحة على وثاقة العلاقة بين أبي نواس وابن الربيع أبرز المتأمرين على البرامكة، كما يدل على فرط عناية ابن الربيع بالشاعر؛ فلهذا كان مدح الشاعر إياه ومدحه لبنيه.

أما الرجل الثاني في قائمة ممدوحي أبي نواس فهو الفضل بن يحيى البرمكي، وهو - وإن كان رضيع الرشيد- لم يكن قريباً منه، على حين نجد أخاه جعفر بن يحيى نديم الرشيد، وأقرب البرامكة إليه- على رأس من نالهم أبو نواس بقبیح القول في هجاء مقذع، غير أنه بسطوته ونفوذه ومكانته من الخليفة، وذلك هو المقصود في هذا البحث بتقاطع الولاءات عند أبي نواس، وقد ظهر هذا التقاطع جلياً في شعره مدحاً وهجاءً، وهذه هي الظاهرة التي تحتاج إلى تفسير؛ إذ ربما يكشف لنا تفسيرها الغموض الذي يعشى القصيدة التي هي موضوع الدرس وما حولها: متناً وفحوى ونقداً. هكذا قُدِّر لأبي نواس أن يكون من ندامى رجال السلطة ومادحيهم، وأن ينقسم ولاؤه بين البرامكة وعدوهم الأول ابن الربيع. غير أن ولاءه للبرامكة لم يكن مطلقاً؛ فقد مدح الأخ البعيد عن الخليفة

وهجا القريب منه، وهذا قاطع في أن المدح والهجاء لم يكن عن ولاء سياسي، وإنما كان بسبب الجوائز والهيئات منحاً ومنعاً؛ فلقد كان الفضل البرمكي كريماً جواداً، وكان أخوه جعفر مع شاعرنا على خلاف الفضل. وليس ببعيد أن يكون ذلك منه عن إرادة إرضاء للفضل بسبب ما بينه وبين أخيه من جفوة، أو إرضاءً لممدوحه الأول ابن الربيع الذي هو في الوقت نفسه العدو الأول لجعفر. ويخبرنا شعر أبي نواس أنه امتدح جعفراً ولم ينل منه مأموله، وعاد كسيفاً خائباً، فاستحق هجاءه وإن خذلت جراته فعرض ولم يصرح^(٥٨):

قَالُوا: اِمْتَدَحْتَ فَمَاذَا اِعْتَضْتَ؟ قُلْتُ لَهُمْ: خَرَقُ النِّعَالِ وَإِخْلَاقُ السَّرَاوِيلِ
قَالُوا: فَسَمِّ لَنَا هَذَا، فَقُلْتُ لَهُمْ: وَصَفِي لَهُ يَغْدُلُ التَّفْسِيرَ فِي الْقَيْلِ

وتورد الأخبار سنداً دافعاً لهذا الاستنتاج؛ فقد "تحدث بنو نبيخت أن أبا نواس لما مدح الفضل أعطاه خمس مئة دينار، فلم يرضها لكثرة عطائه لغيره، ثم امتدح يحيى فأراد أن يجزل عطيته فاعترض دونه ابنه جعفر، فأعطاه دون ما قدر."^(٥٩)، فكان هذا التصرف من دوافع هجائه لجعفر.

وبالعودة إلى فرضية البحث، وفحص القرائن التاريخية والنصوص تحاول هذه الدراسة إمطة اللثام عن حكاية القصيدة، وتحقيق القول في التقويم النقدي لها من قِبَلِ أعلام نقد الشعر من المتقدمين (ابن طباطبأ، والعسكري، وابن رشيق)، وهذا هو موضوع الحديث في المبحث الآتي.

٤ / ٠ تحقيق فرضية البحث

سبقت الإشارة إلى جوهر الفرضية التي يتصدى لها البحث؛ وخلصتها أن البحث يحتج لأهمية اعتبار الظرف التاريخي عند المعالجة النقدية للقصيدة، وأن عزل القصيدة عن سياقها التاريخي الحاف بها والمؤثر في العمل الشعري يوشك أن يؤدي إلى ما لا بد منه من التباس الفهم، والجور في التقويم والحكم. وقد وقع الاختيار على قصيدة مدح صاعها أبو نواس للفضل البرمكي وألقاها بين يديه، وكانت موضع التعليق والنقد من عدد من أعلام النقاد المتقدمين. ويفترض البحث أن فحص هذه القصيدة في ضوء أحداث الفتنة البرمكية، والأدوار التي اضطلع بها صانعوها يمكن أن يفضي إلى نتيجتين مهمتين: إثبات ضرورة اعتبار الظرف التاريخي عند التحليل، وإقرار رؤية نقدية مخالفة لما ذهب إليه المتقدمون في شأن تفسيرها والحكم عليها.

وقد عززت القرائن المستخرجة من السياقين النقدي والتاريخي أن تجايفي أبي نواس عن براعة الاستهلال وحسن الابتداء في القصيدة - مع قدرته عليه - كان عن قصد وتعمد، لا عن غفلة وذهول عن الأصول المرعية في فن المديح، كما أن عبارة ابن رشيق الغامضة الملهمة التي يقول فيها: "اللهم إلا أن يصنع ذلك حيلة منه وستراً على ما قصد إليه." تتضمن تحريضاً على محاولة استكشاف هذا الذي قصد إليه أبو نواس، وحاول في قصيدته الستر عليه. والذي ترجمه القرائن النقدية والتاريخية هو أن القصيدة أريد بها تنبيه الفضل البرمكي إلى ما يجري وراء الأكمة، وإلى أن ثمة ريحاً عاصفة تتجمع نذرها لتعصف بالبرامكة، وتبدلهم بالسلطان والنفوذ ورغد العيش قتلاً وحبساً وتعذيباً ومصادرة للأموال والضياع وتكيباً بأسبابهم.

وفي ما يأتي تحقيق القول وبيان لحقيقته من الوجهتين النقدية والتاريخية.

٢ / ٤ التحقيق النقدي للفرضية

يعتمد التحقيق النقدي للفرضية على نوعين من القرائن التي تكاد ترقى لرتبة الأدلة، وينضاف إليهما ما هو ثابت من الأخبار المتواترة عن ذكاء الشاعر، وتضلعه في علوم المعارف الدينية واللغوية. ويتعلق الضرب الأول من القرائن بمذهبه الشعري في المطلع الطللي، والآخر بما تبوح به القصيدة من مؤشرات نصية.

١ / ٢ / ٤ مذهب أبي نواس في المطلع الطللي

القصيدة التي بين أيدينا تبدأ بمناجاة حزينة كاسفة للربع البالي. ويبدو هذا المطلع معانداً أشد العناد لجوهر المذهب الذي اعتنقه أبو نواس ودافع عنه وأتاه اللوم عليه من كل جانب؛ وهو الإعراض عن الاستهلال بالمقدمة الطللية ومناجاة الرسوم الدوارس. وليس ثمة شاعر في تاريخ الشعر العربي عالن جمهوره بدعوته وألح عليها إلحاح أبي نواس. إنه يدعو رفاقه من الشعراء إلى الإعراض عن هذا التقليد الفني، وإطراحه بطرق مختلفة، كما يزين لجمهور المتلقين تغيير عاداتهم وذواتهم في التلقي، ويهيئوا أنفسهم للاستمتاع بالبدل المقترح منه؛ وهو وصف الخمر ونعتها بأحسن نعتها، وتحبيب مجالس الشراب وصحبة الندامى وغشيان حوانيت الخمارين؛ ولنتأمل هذه المطالع الدالة:

- | | |
|---|---|
| ١) أَيَا بَاكِي الْأَطْلَالِ غَيَّرَهَا الْبَلَى
أَتْنَعَتْ دَارًا قَدْ عَفَتْ وَتَبَدَّلَتْ | بَكَيْتَ بَعَيْنٍ لَا يَجِفُّ لَهَا عَرَبٌ
فَأَيُّ لِمَا سَأَلْتِ مِنْ نَعْتِهَا حَرْبٌ (١٠) |
| ٢) عَجُّ لِّلْوَقُوفِ عَلَى رَاحٍ وَرِيحَانٍ | فَمَا الْوَقُوفُ عَلَى الْأَطْلَالِ مِنْ شَانِي (١١) |
| ٣) دَعُ الرَّبْعُ، مَا لِلرَّبْعِ فِي نَصِيبٍ
وَلَكِنْ سَبَبْتِي الْبَابِلِيَّةُ إِنَّهَا | وَمَا إِنْ سَبَبْتِي زَيْنَبٌ وَلُغُوبٌ
لِمِثْلِي فِي طُولِ الْحَيَاةِ سَلُوبٌ (١٢) |
| ٤) عَدَّ عَن رَسْمٍ وَعَن كُتُبٍ | وَأَلَّهُ عَنْهَا بِابْنَةِ الْعَنْبِ (١٣) |
| ٥) أَتْرَكَ الْأَطْلَالَ لَا تَعْبَأُ بِهَا | إِنَّهَا مِنْ كُلِّ بُؤْسٍ دَانِيَّةٌ (١٤) |
| ٦) عَاجَ الشَّقِيَّ عَلَى دَارٍ يُسَانِلُهَا | وَعَجَبْتُ أَسْأَلُ عَنْ حَمَارَةِ الْبَلَدِ (١٥) |
| ٧) قُلْ لِمَنْ يَبْكِي عَلَى رَسْمٍ دَرَسَ
أَتْرَكَ الرَّبْعَ وَسَلِمَى جَانِبًا | وَإِقْفَاءً، مَا ضَرَّ لَوْ كَانَ جَلَسَ
وَاصْطَبَحَ كَرَحِيَّةً مِثْلَ الْقَبَسِ (١٦) |

ويطول بنا مجال القول إذا ما عمدنا إلى مزيد من الاستقصاء لمطالع أبي نواس، لكن يمكن القول بدرجة كافية من الاطمئنان إن أيسر مقارنة بين النماذج التي سيقف ومطلع القصيدة المدروسة يظهر الجفوة واتساع الفجوة بين مذهب أبي نواس في هذا الشأن وما جاء عليه مطلع القصيدة المعنية، كما يرجح فرضية القصد والتعمد، وأن الأمر ليس مجرد تطبيق ساذج لهذا التقليد الذي رسخه شعراء الجاهلية والحقبة الأموية. وإن؛ فالراجح أن وراء المطلع الصادم رسالة يراد إبلاغها للممدوح، ويؤكد هذا الاستنتاج أن أبا نواس لم يكن ليحيد عن مذهبه في اجتناب نعت الأطلال في استفتاح شعره إلا مضطراً؛ وذلك ما تُحدِّثنا به أبياته الواضحة الدلالة في تعليل حيدته عن مذهبه. يقول أبو نواس: (١٧)

- | | |
|---|--|
| - أَعْرِ شِعْرَكَ الْأَطْلَالَ وَالذَّمَنِ الْقَفْرَا | فَقَدْ طَالَمَا أَرَى بِهِ نَعْتِكَ الْخَمْرَا |
| - دَعَانِي إِلَى وَصْفِ الطُّلُولِ مُسَلِّطٌ | يَضِيْقُ ذِرَاعِي أَنْ أَرُدَّ لَهُ أَمْرَا |
| - فَسَمِعَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَطَاعَةً | وَأِنْ كُنْتُ قَدْ جَشَمْتَنِي مَرْكَبًا وَعَرَا |

والأبيات معبرة عن إذعان الشاعر لأمر أمير المؤمنين الذي لا يمكن عصيانه، ولكنه يصرح في الوقت نفسه بأن إنفاذ الأمر ليس سهلاً عليه، بل هو مركّب وعر حُمِلَ عليه مكرهاً.

٤ / ٢ / ٢ قصيدة "أربع البلى": مؤشرات نصية

تقود مقارنة القصيدة المعنية بنظائرها في ديوان أبي نواس إلى عدد من الملاحظ اللافتة للنظر، لعل أهمها:

(١) أن حضور الأطلال في مستهل قصائد أبي نواس يقترن دائماً بخطاب رفيقه أو المتلقي المجهول، يطلب إليه أن يدع الطلل والربع وينصرف إلى ما هو أجدى عند الشاعر من مجالس الشراب والفرجة والانبساط. أما في هذه القصيدة فالخطاب موجه توجيهاً مباشراً، مستخدماً حرف الألف من بين حروف النداء الذي جعله أهل العلم لنداء القريب (٦٨).

(٢) أن المقابلة في المطلع بين ما هو بادٍ على الربع من الذلة والانكسار وما هو مُستَكِنٌ في القلب من الودّ وانتفاء الخيانة أمر غريب بالكلية على خطاب أبي نواس في مثل هذا المقام!:

- أَرْبَعُ الْبَلَى إِنَّ الْخُشُوعَ لِبَادِي عَلَيْكَ، وَإِنِّي لَمْ أَخُنْكَ وَدَادِي

(٣) أن مناجاة الربع لم يكن يحتل من القصيدة موقع المطلع الاستهلاكي فقط، بل امتد إلى عدد من الأبيات مفعمة بالخطاب الحميم الأسيان لما أصاب الربع.

(٤) أن المعاني التي تضمنها حديث الربع ذات خصوصية لا نكاد نجدها في قصائده الأخرى؛ إذ يعتذر إلى الربع ويذكر أنه لا شيء بيده كي يدفع عنه ما يلوح في الأفق من نذر الشر، ثم إنه يلح على ذكر الفناء المهجور وتبدل النعمة، في ما يبدو أنه إشارة إلى النازلة المرتقبة التي تنتظر الربع في الغيب المحجب:

- فَمَعْرَةَ مَنِّي إِلَيْكَ بِأَنْ تُرَى
- فَلَا أَدْرَأُ الضَّرَاءَ عَنْكَ بِحِيلَةٍ
- فَإِنْ كُنْتُ مَهْجُورَ الْفَنَاءِ فِيمَا رَمْتُ
- وَإِنْ كُنْتُ قَدْ بُدِّلْتُ بُوْسَى بِنِعْمَةٍ
رَهِيئَةً أَرْوَاحٍ وَصَوْبِ عَوَادِي
فَمَا أَنَا مِنْهَا قَائِلٌ لِسُعَادِ
يُدُّ الدَّهْرُ عَنْ قَوْسِ الْمَنُونِ فُوَادِي
لَمَّا بُدِّلْتُ عَيْنِي قَدَى بِرُقَادِ

(٥) حديث الرحلة في شعر أبي نواس لافت ومُلهِم، ففي قصائده التي يجهر فيها بالإعراض عن نعت الطلل ومناجاة الرسوم، شفع ذلك بطلب الإعراض عن نعت الناقة والسخرية من اتخاذها مطيته في الرحلة إلى الحبيب أو الممدوح ومن الاستغراق في وصفها، فيقول على سبيل المثال:

(٦٩)

- سَقِيًّا لَعَيْرِ الْخِيَامِ وَالطَّلِ
- عَجِبْتُ مِنْ نَعْتِهَا وَنَاعَتِهَا
وَعَيْرِ عَيْدِيَّةٍ مِنَ الْإِبِلِ
وَأَيُّ نَعْتٍ يَكُونُ لِلْجَمَلِ؟!

بل إنه في إحدى مدائحه للفضل البرمكي يستبدل بالناقة في الرحلة النعل الحضرميَّ المُسَنَّس، ويباهي بالنعال؛ فهي مطايا لم يُقرَّبها فحلٌّ ولم تحمل ولم تلد ولم تمرض فتعالج بالقطران، يقول: (٧٠)

- إِلَيْكَ أبا الْعَبَّاسِ مِنْ بَيْنِ مَنْ مَشَى
- فَلَانِصُّ لَمْ تُعْرِفْ حَنِيتاً عَلَى طَلَى
عَلَيْهَا امْتَطَيْنَا الْحَضْرَمِيَّ الْمُسَنَّسَا
وَلَمْ تُدْرِ مَا قَرَعُ الْفَنِيْقِ وَلَا الْهِنَا

لكننا في قصيدة "أربع البلى" نرى تصويراً لرحلة تقليدية تحظى فيها الناقاة بالصورة المثالية التي طالما طالعنا في الشعر الجاهلي وشعر صدر الإسلام، بل إنها تذكرنا بناقة طرفة بن العبد في معلقته المعروفة، يقول أبو نواس:

- سَأْرَحَلُ مِنْ قُودِ الْمُهَارِي شَمْلَةً
مَعِ الرَّيْحِ إِنْ هَبَتْ، فَإِنْ هِيَ أَعْصَفَتْ
مُسَخَّرَةٌ لَا تُسْتَحْتُ بِحَادِي
نُهُورٌ بِرَأْسِ كَالْعَلَاةِ وَهَادِي
فَكَمْ حَطَّمَتْ مِنْ جُنْدَلٍ بِمَفَازَةٍ
وَحَاصَتْ كَتَيَّارِ الْفَرَاتِ بُوَادِي
- وَمَا ذَاكَ فِي جَنْبِ الْوَزِيرِ وَرُورِهِ
لِيَعْدِلَ عَنْ عُنْسِي مَدَبَّ فَرَادٍ

فأين ذلك من قوله في ما سبق: "وَأَيُّ نَعْتٍ يَكُونُ لِلْجَمَلِ؟!".

ولعل جدية المقام وخطر الرسالة التي كان يعرض بها للفضل البرمكي لم تكن لتسمح له بحرية التعبير المتمرد التي يمارسها كثيراً على التقاليد الشعرية المقدورة التي أرساها أسلافه من أعلام الشعراء.

(٦) أن أبا نواس أعقب أبيات الرحلة وامتداح الفضل البرمكي بما يُمدح به مثله ببيت مزلزل يُلَوِّحُ بالنكبة التي تنتظر آل برمك:

- سَلَامٌ عَلَى الدُّنْيَا إِذَا مَا فُقِدْتُمْ
بَنِي بَرْمَكٍ مِنْ رَانِحِينَ وَغَادِي

وهو البيت الذي تطير له الفضل، ولعله استبان مقاصده بعد فوات الأوان.

(٧) لم ينس أبو نواس أن يُعلي من شأن قصيدته فينسبها إلى الخليل وقطرب:

- خَلِيلِيَّةٌ فِي وَرْثِهَا قَطْرُبِيَّةٌ
نُظَائِرُهَا عِنْدَ الْمُلُوكِ عَتَادِي

والغالب على الظن أن هذه الإشارة الغربية على شعر أبي نواس إلى الخليل صاحب العروض، وإلى قطرب صاحب اللغة كانت إغاضة منه للأصمعي منافس قطرب وخصيم أبي نواس، والنديم الأثير لجعفر البرمكي، وكان بينه (يعني: الأصمعي) وبين الشاعر جفاء وتباغض، حتى إنه لم يكن يذكره بخير في أي مجلس. وربما كان هذا الملمح ذا دلالة مهمة؛ لما يشير إليه من اعتلاق القصيدة بالظرف الخارجي المباشر، وإلى العلاقات المشتبكة بين الأشخاص والأحداث. ولم يكن عجباً أن يحكم قطرب للقصيدة بأنها: "أجود شعر أبي نواس" (٧١)، كما لم يكن عجباً أن يميظ ابن منظور اللثام عن هذه الحقيقة معللاً لها فيقول: "وأظنه إنما بالغ في ذكر هذه القصيدة والثناء عليها لأن أبا نواس ذكره فيها... ولم يذكر قطرباً إلا لأنه كان يرى رأيه، وهو رأي النظم، وعنه أخذ أبو نواس، وأراد أن يغيب الأصمعي بذكره؛ لأنهما جميعاً غلاماً خلف الأحمر" (٧٢). وهكذا تتعدد المؤشرات النصية التي يترجح معها صدق فرضية البحث بتأكيد أهمية القصيدة بوصفها رسالة تحذير مكتومة باح بها أبو نواس تنبيهاً لغفلة الفضل ومن ورائه أبوه يحيى بن خالد.

٣ / ٤ لتحقيق التاريخي للفرضية

ما بين انعقاد البيعة لهارون الرشيد عام ١٧٠هـ ووفاته في طوس ١٩٣هـ كانت دولة الخلافة العباسية تُسَّاسُ بسلطة مطلقة؛ للخليفة فيها اليد العليا، مستعيناً بجناحين هما: الوزارة؛ وكانت لآل برمك حتى وقوع النكبة عام ١٨٧هـ، والحجابه؛ وكانت في آل الربيع، وبزوال سلطان البرامكة آلت الوزارة إلى كبيرهم الفضل بن الربيع، والحجابه إلى ابنه العباس (٧٣). وهكذا تم لابن

الربيع مراده على غاية ما يتمنى. وحين توفي الرشيد بعيداً عن عاصمة الخلافة، كان ابن الربيع رفيقه في رحلته الأخيرة، فمكّن الفضل للأمين؛ وصار في عهده الأمر الناهي في شؤون الدولة، حتى إن الأمين كتب إلى أخيه المأمون: "وإياك أن تنفذ رأياً، أو تبرم أمراً إلا برأي شيخك وثقة أبائك الفضل بن الربيع" (٧٤).

هكذا كانت نكبة البرامكة نهاية الصراع بين مدرستين مختلفتين كل الاختلاف في تدبير الأمور وطلب الحظوة لدى الخليفة؛ فقد طلبها آل برمك بالإخلاص في تثبيت دعائم الحكم، وتدبير أمور الرعية، والمبالغة في السخاء والكرم، وتفريج كربات الناس، والأنفة من ارتكاب طريق الدس والكيد ودنيء الفعل، والالتزام بصريح القول في التعامل مع الخليفة. وكثيراً ما كان يحيى بن خالد يواجه الرشيد بكلمة الحق عند اللزوم غير هيّاب؛ وكان هارون شديد التوقير له، مقتنعاً في قرارة نفسه بإخلاصه في النصح. وتذكر المصادر أن الرشيد صرف الفضل البرمكي عن ولاية خراسان، وولى بعده عليها والياً آخر جاء بأموال جزيلة ساقها إلى الرشيد ليثبت كفاءته ويسترضيه، فقال الرشيد ليحيى مباحياً معجباً بفعل واليه: أين كان الفضل من هذه الأموال؟، وكان جواب يحيى صادماً لا يخلو من سخرية؛ إذ قال: "كانت في بيوت أصحابها"، فانقطع الرشيد حين استبان له أن الأموال جُمعت بالظلم والإكراه (٧٥). كذلك كان في يحيى ورع ينهاه عن ارتكاب المظالم في حق أحد من الرعية، حتى إنه يعلل ما جرى لهم من النكبات بأنها: "دعوة مظلوم غفلنا عنها ولم يغفل عنها الله" (٧٦). وأبى يحيى أن يذعن لمطلب الرشيد حين ساومه على أن يشهد شهادة زور على عمه عبد الملك بن صالح في مقابل كشف الغمة عنه وعن بنيه، وإرجاع الأمر إليهم من جديد، على الرغم من أن الرشيد هدده بقتل ابنه إن لم يفعل، فقال له يحيى في ثبات ويقين: "أنت مستأط علينا فافعل ما شئت" (٧٧). ونلاحظ أن البرامكة كانت لهم سيرة حسنة مع الرعية؛ ومن دلائل ذلك أن الفضل بن يحيى أبى أن يطلق على طلاب الحاجات على بابه تسمية السُّؤال، وسماه الزوّار (٧٨)، بل بلغ من كرم نفسه وهو في أوج محنته أن يقترح ما يكافئ به الطبيب الذي داواه من آثار ضربه بالسياط (٧٩).

والخلاصة؛ أن آل برمك كانوا على ملة أبيهم الأكبر خالد بن برمك (ت ١٦٣ هـ) الذي يصفه المسعودي بقوله: "لم يبلغ مبلغ خالد بن برمك أحد من ولده في جوده وبأسه وعلمه وجميع خلاله؛ لا يحيى في رأيه ووفور عقله، ولا الفضل بن يحيى في جوده ونزاهته، ولا جعفر بن يحيى في كتابته وفصاحته ولسانه، ولا محمد بن يحيى في سَرّوه وهمته، ولا موسى بن يحيى في شجاعته وبأسه" (٨٠). لذلك، لم يكن عجباً أن يغم الرشيد غمّاً شديداً حين علم بموت يحيى بن خالد ويقول: "اليوم مات أعقل الناس وأكملهم" (٨١). وحين شاع الخبر بموته "اشتدّ الجزع من الخاصة والعامّة عليه، واغتمّ عليه جميع من عرفه، وكثر التضاعط والتراحم في جنازته" (٨٢)، وكذلك كان الأمر في جنازة ولده الفضل (٨٣).

أما الطرف الآخر في حلبة الصراع السياسي على السلطة وهم آل الربيع فكانوا على ملة جدهم يونس بن محمد وأبيهم الربيع بن يونس في إتقان لعبة السياسة، والتخطيط المحكم، وصناعة الفخاخ، وتفعيل سلاح المال والرشوة لتحقيق المآرب والإيقاع بخصومهم. لقد كانت الفجوة الفاصلة بينهم وبين آل برمك في الخلق والسلوك واسعة، كما أنهم لم يستطيعوا مجازاة خصومهم في الكيد ولا مصانعتهم لاتقاء شرهم.

نأتي الآن إلى الأدباء والشعراء وغيرهم ممن يشكلون القوة الناعمة التي كان الشعر والأدب سلاحها في الكسب وتحصيل المنافع بالانحياز أو الممالأة لأحد الطرفين، أو التذبذب بينهما بحسب واقعات الظروف والأحوال وحساب موازين القوى وما تجود به خزائن الأموال. ولعله من الجور أن تلام هذه الطائفة أو يُحاكم سلوكهم إلى معايير أخلاقية صارمة تعتمد المبدأ والالتزام بالصرامة؛ فقد كان الشعر والأدب كل بضاعتهم ومصدر رزقهم، وكان رؤوس القوى المتصارعة على السلطة في حاجة إلى القصائد والمسامرات والمؤانسات، كما كان الشعراء والأدباء وأضرابهم في حاجة إلى الأموال، وهكذا اتفقت المصالح، وتشعبت الولاءات؛ فالتفت حيناً وتعاندت حيناً، وفعلت السياسة فعلها في تشكيل هذا المشهد المعقد.

وهكذا قُدِّرَ لأبي نواس أن يعيش في هذا الجو القلق المشحون بالعداوات، وأن تتوزع حياته ومشاعره بين التنافس على جوائز الكبراء وهباتهم وتعلقه بحياة اللهو مع من يشاركونه في مجالس الفرجة والمجون، ويشاربونه ويتناشدون الشعر فيما بينهم.

واللافت في هذه العلاقات المرتبكة المتعارضة أن أبا نواس كان يدين بالكثير لابن الربيع في علاقة ممتدة منذ خلافة الرشيد إلى حقبة ولده الأمين، لكن أبا نواس كان يحمل في جوانحه مشاعر حب وإعجاب للفضل بن يحيى، هذا الذي كان مهماً ومبعداً عن مركز صنع القرار - وهو أمر يبدو مريباً وموافقاً لطبيعة أبي نواس-، وكان الفضل البرمكي يدرأ عن الشاعر غضبة جعفر المتمكن لدى الخليفة، ويعرف له قدره بين الشعراء، كما كان ينتصر له منهم إذا تأمروا عليه وغبنوه في الجائزة. ومن ثم فإن القرائن التاريخية ترجح أن أبا نواس بما له من قبول عند الطرفين المتعادين: البرامكة وآل الربيع، وبحضوره مجالس الرجلين: الفضل البرمكي وابن الربيع كليهما، وهي في الغالب مجالس لهو ومنادمة وشراب، ملائمة بطبيعتها لتناثر الأخبار في غيبة تمام الوعي، كان مرشحاً - عن قصد وغير قصد - ليكون جسراً جيد التوصيل بينهما، والظن الغالب أن كليهما كان يستعمله لتسقط الأخبار من خلاله أحياناً، أو لتسريب ما يراد تسريبه منها أحياناً، كما أنه ليس بالمستبعد أن يكون هو نفسه القائم بالتسريب مريداً وقاصداً لتنبية الطرف الغافل خوفاً عليه مما يحاك له في الخفاء. ولا يخفى أن باب التعريض والتلميح في الشعر متسع، ولا سيما عند الأذكيا من الشعراء كأبي نواس.

إن جميع ما سبق ذكره من القرائن يفضي إلى ترجيح القول بأن القصيدة بما تضمنته في استهلالها وتضاعيفها كانت رسالة متعمدة موجهة إلى الفضل بن يحيى البرمكي من أبي نواس، نذيراً بوقوع النكبة المزلزلة التي دكت سلطان البرامكة. ولعل في ذلك تفسيراً معقولاً للإشارة الغامضة التي أوردها ابن رشيقي ولم يقدم لها تفسيراً؛ إذ يقول: "اللهم إلا أن يصنع ذلك حيلة أو سترأ على ما قصد إليه". وعلى ذلك يمكن أن يكون لدينا تصور قابل للتعليل، ومقبول التأويل لاستفتاح قصيدة يصنعها الشاعر في مقام المدح بمطلع يقول:

- أربَعُ البلي إِنَّ الخُشُوعَ لَبَادِي عَليَّكَ، وَإِنِّي لَمْ أَخُنْكَ وَدَادِي

يحملها بجملة من إشارات التلميح الذكية، ثم يبلغ بهذه الإشارات الذروة في بيت يكاد يلامس التصريح فيقول:

- سَلامَ عَلى الدُّنيا إِذا ما فَقدْتُم بَنِي بَرَمَكٍ مِنْ رَاحِينٍ وَغَادِي

وهل يكون الفقد إلا عن جائحة وطامة لا تبيح ولا تذر؟!

٥/٠ خاتمة وتحصيل

تجتمع القرائن الأدبية والتاريخية التي سبق تفصيل القول فيها لتعزيز الفرضية التي تصدى البحث لإثبات صدقها، وتتمثل في عدد من النتائج هي على سبيل التحصيل: أن مقاصد القصيدة المعنية بالدراسة لم تكن لثُفَهَم على وجهها المعقول في غيبة الطرف التاريخي الذي أحاط بإنتاجها، وحَفَز الشاعر إلى قولها، وأن الأحكام النقدية التي جعلت منها مثلاً سائراً لسوء الاستهلال، واتهمت الشاعر بانتهاكه لقانون ضرورة مراعاة المقال لمقتضيات المقام = هي أحكام قد صدرت في غيبة اعتبار السياق المعقد الذي أفضى إلى تشكيل القصيدة على النحو الذي جاءت به، كما يأتي على رأس النتائج المستفادة من الدراسة تأكيد حقيقة مهمة؛ هي أن اعتبار الظروف المحيطة بالقصيدة لازم ضروري لسلامة الفهم وصواب التحليل؛ وأن جدلية العلاقة بين التاريخ والشعر هي من أهم الركائز المعتمدة في تحليل النص الأدبي، وقد سيقت قصيدة أبي نواس لتكون مثلاً شارحاً ومعززاً لمصادقية هذه العقيدة العلمية التي تنكرها وتنقضها بعض اتجاهات البحث الأدبي المعاصرة.

الهوامش والحواشي

- (١) الخطيب البغدادي؛ الإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن علي، "تاريخ بغداد أو مدينة السلام"، /تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٩٧، ج ٧/ص: ٤٥٠.
- (٢) السابق، ج ٧/ص: ٤٥٠.
- (٣) انظر في ترجمة أبي نواس؛ الحسن بن هانئ: "تاريخ بغداد"، ج ٧/ص: ٤٤٩ وما بعدها (ترجمة رقم: ٤٠١٧). ابن منظور، "مختار الأغاني في الأخبار والتهاني"، /تح: عبد العليم الطحاوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة - القاهرة، ١٩٦٥ - ١٩٦٦، ج ٣/ص: ٥ وما بعدها. ابن المعتز؛ عبد الله بن محمد، "طبقات الشعراء"، /تح: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف - القاهرة، ط ٣ - ١٩٧٦، ص: ١٩٣ وما بعدها. [لا يمكن حصر من ترجم لأبي نواس فالمقام هنا لا يتسع لذلك، وأكتفي بالمذكور هنا إضافة إلى طبقات ديوانه الوارد ذكرها في البحث].
- (٤) أبو بكر الصولي، "ديوان أبي نواس برواية الصولي"، /تح: بهجت عبد الغفور الحديثي، دار الرسالة للطباعة - بغداد، ١٩٨٠، ص: ٣٨٤.
- (٥) ديوان أبي نواس، /تح: غريغور شولر وإيفالد فاغنر، الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة، ٢٠٠٠، ج ١/ص: ١٥٢.
- (٦) ديوان أبي نواس، /تح: أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي - بيروت، ١٩٩٢، ص: ٤٧١.
- (٧) الصولي، "ديوان أبي نواس"، ص: ٣٨٧، ففي الهامش (٤) إيضاح للمعنى واحتمال الروايات؛ وجاء أن معنى (أرونان: شديد في كل شيء).
- (٨) "ديوان البحتري"، /تح: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف - القاهرة، ط ٢ - ١٩٦٨، ص: ٢٤١٤ (القصيدة رقم: ٩١٥)، مطلعها:
- مِيلُوا إِلَى الدَّارِ مِنْ لَيْلِي نُحَيِّبُهَا نَعَمَ، وَنَسْأَلُهَا عَنْ بَعْضِ أَهْلِيهَا
- (٩) انظر: ابن معصوم المدني؛ علي صدر الدين، "أنوار الربيع في أنواع البديع"، /تح: شاكِر هادي شكر، مؤسسة التاريخ الإسلامي- بيروت، ١٩٦٨ - ١٩٦٩، ج ١/ص: ٧٥ - ٧٦. ابن منظور، "مختار الأغاني"، ج ٣/ص: ٢٧٧.
- (١٠) ابن حجة الحموي، "خزانة الأدب وغاية الأرب"، /تح: عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال - بيروت، ١٩٨٧، ج ١/ص: ٢١.
- (١١) ابن معصوم، أنوار الربيع، ج ١/ص: ٧٤.
- (١٢) ابن منظور، مختار الأغاني، ج ٣/ص: ٢٧٦.
- (١٣) السابق، ج ٣/ص: ٢٧٦.
- (١٤) ابن طباطبا العلوي؛ أبو الحسن محمد بن أحمد، "عيار الشعر"، /تح: عبد العزيز بن ناصر المنع، منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق، ٢٠٠٥، ص: ٢٠٤.
- (١٥) السابق، ص: ٢٠٤ - ٢٠٥.
- (١٦) أبو هلال العسكري، "كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر"، /تح: علي محمد الجاوي وأبو الفضل إبراهيم، عيسى البابي الحلبي - مصر، ١٩٥٢، ص: ٤٥١.
- (١٧) السابق، ص: ٤٥٢.
- (١٨) ابن رشيق القيرواني؛ أبو علي الحسن، "العمدة في صناعة الشعر وآدابه ونقده"، /تح: النبوي عبد الواحد شعلان، درة الغواص - القاهرة، ط ٢ - ٢٠١٩، ج ١/ص: ٣٥٩.
- (١٩) السابق، ج ١/ص: ٣٦٠.
- (٢٠) الجهشياري؛ أبو عبد الله محمد بن عبدوس، "كتاب الوزراء والكتاب"، /تح: عبد الله إسماعيل الصاوي، طبع ببنفقة المكتبة العربية - بغداد، ١٩٣٨، ص: ١٢٨.
- (٢١) السابق، ص: ١٣٤. ابن الأثير؛ أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني الجزري، "الكامل في التاريخ"، /تح: نخبة من العلماء، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ٦ - ١٩٨٦، ج ٥/ص: ٢٨.
- (٢٢) ابن الجوزي؛ أبو الفرج بن علي بن محمد، "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم"، /تح: محمد عبد القادر عطا الله ومصطفى عبد القادر عطا الله ونعيم زرزور، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٩٢، ج ٩/ص: ١٣٢.
- (٢٣) انظر تفصيل ما ورد من أقوال في أسباب النكبة: ابن الجوزي، "المنتظم"، ج ٩/ص: ١٢٧ - ١٣٠. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٥/ص: ١١٤ وما بعدها.
- (٢٤) انظر في ترجمة عيسى بن موسى: الذهبي؛ الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، "سير أعلام النبلاء"، /تح: شعيب الأرنؤوط - وحقق هذا الجزء: علي أبو زيد، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ٩ - ١٩٩٣، ج ٧/ص: ٤٣٤ (ترجمة رقم: ١٦٤).
- (٢٥) الجهشياري، "ك. الوزراء والكتاب"، ص: ٨٩.

- (٢٦) ابن خلكان؛ أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان"/تح: إحسان عباس، دار الثقافة - بيروت، ١٩٦٨، ج ٢/ص: ٢٩٤.
- (٢٧) السابق، ج ٢/ص: ٢٩٦.
- (٢٨) تاريخ بغداد، ج ٨/ص: ٤١٣.
- (٢٩) السابق، ج ٨/ص: ٤١٣.
- (٣٠) الجهشيارى، "ك. الوزراء والكتاب"، ص: ١١٤.
- (٣١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٤/ص: ٣٧.
- (٣٢) "المنتظم"، ج ٩/ص: ١٢٨.
- (٣٣) إسماعيل بن صبيح كاتب هارون الرشيد والبرامكة، قلده الرشيد ديوان الخراج ثم ديوان الرسائل، وكان أحد الذين هجاهم أبو نواس. انظر: الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، "ك. الوافي بالوفيات"، فرانز شتاينر - بيفسبادن، ط ٢ - ١٩٦٢ (١٩٩١ على الغلاف الخارجي)، ج ٩/ص: ١٢٣ - ١٢٤. الجهشيارى، ص: ١٢٦ - ١٢٧، ٢٠٧، ٢٤٦.
- (٣٤) ابن خلكان، "وفيات الأعيان"، ج ٤/ص: ٣٧. الذهبي، "سير أعلام النبلاء"، ص: ١٠٩ - ١١٠.
- (٣٥) ابن كثير؛ أبو الفداء الحافظ الدمشقي، "البداية والنهاية"/تح: الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ٣ - ١٩٩٧، ج ١٠/ص: ٢٢٠. الذهبي، "سير أعلام النبلاء" ج ١٠/ص: ١١٠.
- (٣٦) "سير أعلام النبلاء"، ج ١٠/ص: ١١٠. وانظر أيضاً: ابن كثير، "البداية والنهاية"، ج ١٠/٢٢٠.
- (٣٧) ياقوت الحموي؛ أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، "معجم الأدباء أو إرشاد الأريب لمعرفة الأديب"، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٩١، ج ٥/ص: ٦١٦ - ٦١٩.
- (٣٨) السابق، ج ٥/ص: ٦١٦.
- (٣٩) انظر: تاريخ بغداد، ج ٧/ص: ١٦٤. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٥/ص: ١١٤. معجم الأدباء، ج ٥/ص: ٦١٦. سير أعلام النبلاء، ج ٩/٥٩، ٦٠، ٦١، ٩١.
- (٤٠) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١/ص: ٣٣٢.
- (٤١) الجهشيارى، "ك. الوزراء والكتاب"، ص: ١٤٥.
- (٤٢) تاريخ بغداد، ج ٧/ص: ١٦٤.
- (٤٣) سير أعلام النبلاء، ج ٩/ص: ٩١.
- (٤٤) تاريخ بغداد، ج ١٢/ص: ٣٣٢. سير أعلام النبلاء، ج ٩/ص: ٧١، ٩١.
- (٤٥) الجهشيارى، "ك. الوزراء والكتاب"، ص: ١٥٣.
- (٤٦) السابق، ص: ١٤٥.
- (٤٧) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١/ص: ٣٣٣ - ٣٣٤.
- (٤٨) ومن ذلك الشكوى التي أوردها ابن خلكان والذهبي في جعفر بن يحيى البرمكي، وفيها يقول شاعر مجهول:
- قُلْ لِأَمِينِ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ
هَذَا ابْنُ يَحْيَى قَدْ غَدَا مَالِكًا
أَمْرُكَ مَرْدُودٌ إِلَى أَمْرِهِ
وَقَدْ بَنَى الدَّارَ الَّتِي مَا بَنَى الدُّرُّ
وَالْيَاقُوتُ حَصَبًا وَهَا
وَحَحْنٌ نَحْسِنَى أَنَّهُ وَارْتٌ
وَلَنْ يُبَاهِيَ الْعَبْدُ أَرْبَابَهُ
إِلَّا إِذَا مَا بَطَرَ الْعَبْدُ
"فلما وقف الرشيد عليها أضمر له السوء".
- انظر: سير أعلام النبلاء، ج ٩/ص: ٦٨. وفيات الأعيان، ج ١/ص: ٣٣٥ - ٣٣٦.
- (٤٩) المنتظم، ج ٩/ص: ١٣٢.
- (٥٠) الجهشيارى، ١٩٩.
- (٥١) الجهشيارى، ص: ١٨٥ - ١٨٦. وانظر أيضاً: وفيات الأعيان، ج ١/٣٣٧ - ٣٣٩. المنتظم، ج ٩/ص: ١٣٤.
- (٥٢) الجهشيارى، ص: ١٤٧ - ١٤٨. ديوان أبي نواس، شولر، ج ٢/٨٠.
- (٥٣) ديوان أبي نواس، الصولي، باب المديح، ص: ٣٥٨ - ٥٥٠.
- (٥٤) السابق، باب الهجاء، ص: ٥٥٣ - ٧٠٧.
- (٥٥) الجهشيارى، ص: ٢٣٩. سير أعلام النبلاء، ج ١٠/ص: ١٠٩.
- (٥٦) ابن منظور، مختار الأعاني، ج ٣/ص: ٢٧٧.

- (٥٧) السابق، ج ٣/ ص: ٢٧٧.
- (٥٨) الجهشياري، ص: ١٦٩. وانظر أيضاً: ديوان أبي نواس، الصولي، ص: ٦٨٢؛ وقد وردت رواية الأبيات عند الصولي مع بعض الاختلاف.
- (٥٩) ديوان أبي نواس، شولر، ج ١/ ص: ١٥٢.
- (٦٠) ديوان أبي نواس، فاغنز، ج ٣/ ص: ٣٩.
- (٦١) السابق، ج ٣/ ص: ٣١٩.
- (٦٢) السابق، ج ٣/ ص: ٤٦.
- (٦٣) السابق، ج ٣/ ص: ٥٢.
- (٦٤) السابق، ج ٣/ ص: ٣٤٥.
- (٦٥) ديوان أبي نواس، الصولي، ص: ١٣٥. وقد وردت الأبيات في تحقيق فاغنز مع بعض الاختلافات في الرواية، انظر: ديوان أبي نواس، فاغنز، ج ٣/ ص: ١٠٩.
- (٦٦) ديوان أبي نواس، فاغنز، ج ٣/ ص: ١٩٦.
- (٦٧) السابق، ج ٣/ ص: ١٥٣.
- (٦٨) ابن هشام الأنصاري، "مغني اللبيب عن كتب الأعراب"/ تح: عبد اللطيف الخطيب، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت ٢٠٠٠، ج ١/ ص: ٦٩.
- (٦٩) ديوان أبي نواس، فاغنز، ج ٣/ ص: ٢٥٠.
- (٧٠) ديوان أبي نواس، الصولي، ص: ٥٤٢ - ٥٤٣.
- (٧١) مختار الأغاني، ج ٣/ ص: ٢٧٦.
- (٧٢) السابق، ج ٣/ ص: ٢٧٦.
- (٧٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٤/ ص ٣٨. الجهشياري، ص: ١٤٨، ٢٣٦. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٠/ ص: ١١٠.
- (٧٤) الجهشياري، ص: ٢٢٣.
- (٧٥) انظر: معجم الأدباء لياقوت الحموي، ج ٥/ ص: ٦١٨. الجهشياري، ص: ١٨٠ - ١٨١.
- (٧٦) تاريخ بغداد، ج ١/ ص: ١٣٦. سير أعلام النبلاء، ج ٩/ ص: ٩٠.
- (٧٧) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٥/ ص: ١١٨.
- (٧٨) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ١٢/ ص: ٣٣٣.
- (٧٩) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٤/ ص: ٣٤. الجهشياري، ص: ١٩٥.
- (٨٠) المسعودي؛ أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية - بيروت، ١٩٨٨، ج ٣/ ص: ٣٧٧. الصفدي، "الوافي بالوفيات"، ج ١٣/ ص: ٢٤٨.
- (٨١) الجهشياري، ص: ٢١٠.
- (٨٢) السابق، ص: ٢١٠.
- (٨٣) السابق، ص: ٢١٠.
- قائمة المصادر والمراجع**
- (١) ابن الأثير؛ أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني الجزري، "الكامل في التاريخ"، تح: نخبة من العلماء، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ٦ - ١٩٨٦.
- (٢) أبو بكر الصولي، "ديوان أبي نواس برواية الصولي"، تح: بهجت عبد الغفور الحديثي، دار الرسالة للطباعة - بغداد، ١٩٨٠.
- (٣) أبو نواس؛ الحسن بن هانئ، (الديوان)/ تح: أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي - بيروت، ١٩٩٢.
- (٤) أبو نواس؛ الحسن بن هانئ، (الديوان)/ تح: غريغور شولر وإيفالد فاغنز، الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة، ٢٠٠٠.
- (٥) البحتري: الوليد بن غبيد بن يحيى الطائي، (الديوان)/ تح: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف - القاهرة، ط ٢ - ١٩٦٨.
- (٦) الجهشياري؛ أبو عبد الله محمد بن عبدوس، "كتاب الوزراء والكتّاب" / تح: عبد الله إسماعيل الصاوي، طبع بنفقة المكتبة العربية - بغداد، ١٩٣٨.
- (٧) ابن الجوزي؛ أبو الفرج بن علي بن محمد، "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم" / تح: محمد عبد القادر عطا الله ومصطفى عبد القادر عطا الله ونعيم زرزور، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٩٢.
- (٨) ابن حجة الحموي، "خزانة الأدب وغاية الأرب" / تح: عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال - بيروت، ١٩٨٧.

- ٩) الخطيب البغدادي؛ الإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن علي، "تاريخ بغداد أو مدينة السلام" / تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٩٧.
- ١٠) ابن خلكان؛ أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، "وفيات الأعيان وأنبياء أبناء الزمان" / تح: إحسان عباس، دار الثقافة - بيروت، ١٩٦٨.
- ١١) الذهبي؛ الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، "سير أعلام النبلاء" / تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ٩ - ١٩٩٣.
- ١٢) ابن رشيقي القيرواني؛ أبو علي الحسن، "العمدة في صناعة الشعر وأدابه ونقده" / تح: النبوي عبد الواحد شعلان، درة الغواص - القاهرة، ط ٢ - ٢٠١٩.
- ١٣) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، "ك. الوافي بالوفيات"، فرانز شتاينر - بفيسدان، ط ٢ - ١٩٦٢ (١٩٩١) على الغلاف الخارجي).
- ١٤) ابن طباطبا العلوي؛ أبو الحسن محمد بن أحمد، "عيار الشعر" / تح: عبد العزيز بن ناصر المانع، منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق، ٢٠٠٥.
- ١٥) ابن كثير؛ أبو الفداء الحافظ الدمشقي، "البيدانية والنهاية" / تح: الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ٣ - ١٩٩٧.
- ١٦) المسعودي؛ أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، "مروج الذهب ومعادن الجوهر" / تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية - بيروت، ١٩٨٨.
- ١٧) ابن المعتز؛ عبد الله بن محمد، "طبقات الشعراء" / تح: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف - القاهرة، ط ٣ - ١٩٧٦.
- ١٨) ابن معصوم المدني؛ علي صدر الدين، "أنوار الربيع في أنواع البديع" / تح: شاكر هادي شكر، مؤسسة التاريخ الإسلامي - بيروت، ١٩٦٨ - ١٩٦٩.
- ١٩) ابن منظور؛ محمد بن مكرم، "مختار الأغاني في الأخبار والتهاني" / تح: عبد العليم الطحاوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة - القاهرة، ١٩٦٥ - ١٩٦٦.
- ٢٠) ابن هشام الأنصاري، "مغني اللبيب عن كتب الأعراب" / تح: عبد اللطيف الخطيب، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، ٢٠٠٠.
- ٢١) أبو هلال العسكري، "كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر" / تح: علي محمد الجاوي وأبو الفضل إبراهيم، عيسى البابي الحلبي - مصر، ١٩٥٢.
- ٢٢) ياقوت الحموي؛ أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، "معجم الأدباء أو إرشاد الأريب لمعرفة الأديب"، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٩١.